مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الصافات

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الصافات

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ
مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾
إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

ابتدأت سورة الصافات بالقسم. فقد أقسم الله تعالى بالملائكة وأحوالها في العبادة والطاعة، وهي: الصافات، والزاجرات، والتاليات. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ فالواو الذي بدأت به الآية الكريمة للقسم، والْمُقْسَم به الملائكة، التي هي: الصافات، والزاجرات والتاليات الذكر. والمراد بالصافات: الملائكة التي تصف في السماء لربها تبارك وتعالى. وعن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والجمهور: بأنها الملائكة[١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والصافات جمع صافة. وهي الطائفة المصطف بعضها مع بعض[٢] وفي هذا الاصطفاف ما يفيد أن من صِفَات الملائكة الصف، وكذلك كمال الطاعة منها لربها سبحانه وتعالى، والامتثال لما يأمرها به عَزَّ وجل. وأضافت دلالة ﴿ صَفًّا ﴾ توكيد الاصطفاف، ليدل على توكيد الامتثال من الطاعة لله تعالى.

ثم بعد أن ذكر سبحانه وتعالى المقسوم به الأول ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ ذكر سبحانه وتعالى المقسوم به الثاني، وهم الملائكة حين يزجرون السحاب وغيره ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ فالفاعلات للزجر من الملائكة، وكلمة الزجر تفيد الأمر والنهي بقوة الأمر، الذي يُلزم المأمور بالاستجابة والمطاوعة وعدم المخالفة، مع سرعة القيام بما أُمِرَ به أو الانتهاء عما نُهي عنه. وورد الزجر عاماً، ليستوعب كُل ما تُكَلَّف به الملائكة من الزجر، سواء للسحاب أو زجر الكفار حين احتضارهم، أو لغير ذلك.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٥/٦)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٧١/٩)

ثم ذكر تبارك وتعالى المقسوم به الثالث من الملائكة حين يتلون ذكر الله عَزَّ وجل ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾ أي: الملائكة وهي تقرأ كتاب الله تعالى، قاله ابن مسعود وابن عباس، والحسن، ومجاهد[١] أي: والملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس، والحسن، ومجاهد وابن جبير والسدي[٢] فدلت تلك الصفات على منزلة الملائكة، واجتهادها في عبادة الله تعالى وعلى كمال الطاعة لربها جَلَّ جلاله. كما دل ذلك على عظمة الله تعالى الذي خلق الملائكة بهذه المواصفات العظيمة من الطاعة وقوة الامتثال وسرعته، وقوة ما أعطاها الله تعالى ومنحها من التمكين، فمنحها بما يمكنها من أداء ما كلفها الله تعالى به. مما يدل على عدل الله تعالى، فإنه لا يكلف مخلوقاً إلا وقد أعطاه من القدرة ما يتمكن به من أداء ما كلفه به. فسبحان الله العظيم في عدله، وفي تدبيره.

ثم تلى ذلك القسم جوابه ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾ فقد أقسم الله سبحانه وتعالى بأنه واحد أحد، ليس له شريك، وبالتالي ليس له ولد، ولا زوجة، فهو الغني عن كل أحد تبارك وتعالى، مما يفيد النهي عن تشبيهه بالمخلوق، وإبطال الشرك والشريك، وإثبات أنه مالك الملك، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، وأنه الخالق والمدبر لما خلق، وأنه ذو السلطان والعزة المطلقة بلا حدود. وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ما أقسم عليه بعدد مما خلق ودَبَّر بأن إلهكم واحد، فقال تعالى ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ فإلهكم الواحد الأحد هو رب السماوات والأرض، وما بين السماء والأرض من مخلوقات في الفضاء، فإن وجود هذ المخلوقات البديعة أظهر الدلائل على أن إلهكم واحد أحد، لا شريك له، وأنه المتفرد بما خلق، وله الملك كله، وله الحكم والسلطان كله.

وكذلك هو رب مشارق الشمس ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ أي: مدبرها في منازل تنزلها صيفاً وشتاء، وهو المدبر والقَيّم على ذلك. وفي إفراد الشروق بالذكر دون الغروب لشد الذهن، ولفت الانتباه لمنازل الشروق. وعلى اعتبار أن للشروق غروب، ولدلالة الكلام عليه. قال السدي رحمه الله تعالى: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً، والمغارب مثلها، على عدد أيام السنة. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قيل: لِمَ ترك ذكر المغارب؟ فالجواب: أن المشارق تدل على المغارب، لأن الشروق قبل الغروب[٣] ففي إفرادها كذلك شد الانتباه لمنازل الشروق التي تشرق منه الشمس، فكل يوم تشرق من منزل من منازلها، وتغيب في منزل يتوافق مع منزل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/١٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٨٦/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٦/٦)

شروقها. مما يبين قدرة الخالق العظيمة سبحانه وتعالى، ودقة نظامه للكون، الذي منه نظام الشروق، ويتبعه الغروب. فسبحان الله تعالى، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له. فمن كان هذا خلقه وهذا تدبيره العظيم في ملكه، فلا تكون العبادة إلا له وحده لا شريك له، خالصة من الشرك والرياء والسمعة، خوفاً من عقابه، ورجاء رحمته سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان إلى إظهار جَمَال ما خلق، وتوزيعه وتوقيته بما يُبرز جماله، ويُظهر فضله، وعظيم ما صنع جَلَّ جلاله. فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ فقد زينا السماء الدنيا لمن ينظر إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ والكواكب جمع كوكب، وهي النجوم المتلألئة كالجواهر المتناثرة بإضاءتها في السماء، وتشمل الكواكب الثابتة، والكواكب السيارة، فتضيء بلمعانها الذي يخترق الغلاف الجوي، الذي هو جرم السماء الشفاف، فتضيء جمالاً لأهل الأرض. وقد شد البيان انتباه الْمُخَاطَب إلى أنه هو الذي زين السماء بتلك الزينة بضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى، فنسب عَزَّ وجل إحداث الزينة له تبارك وتعالى، وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿ إِنَّا ﴾ وكذلك تكرار الضمير في الفعل ﴿ زَيَّنَّا ﴾ ليفيد تأكيد فعل التزيين بالتعظيم والتحقيق والتأكيد، وبيان جمال ما خلق، وأنهم المعنيون بهذا التزيين، وبما يفيد عظيم خلقه وملكه، ليدل على عظمته، وعظمة سلطانه، مع رحمته جَلَّ في علاه.

وفي تعيين السماء الدنيا ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ ما يفيد أن هناك سماوات غير السماء الدنيا، وأن هذه السماء هي أدنى السموات إلى الأرض، فدلالة تسمية ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بصفة ﴿ٱلدُّنْيَا ﴾ ما يفيد أنها الأدنى والأقرب إلى الأرض. وأن فوقها السماوات الأخرى.

وبالرغم من أن هذه الكواكب بهذا الجمال من الزينة، فإنها كذلك هي جند من جنود الله عَزَّ وجل بقدرته جَلَّ شأنه، فجعلها جنوداً حافظة للسماء من الشياطين المتمردة ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ فإن من الأعمال الموكلة إلى الكواكب أنها تقوم بالحراسة والحفظ ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ من كل شيطان خارج عن لزوم الطاعة والامتثال. أي: بخروجه عن حدود ما يجب عليه، ومحاولته استراق السمع لما يدور في الملأ الأعلى، فيأتيه شهاب ثاقب فيحرقه. ويعطي قوله تعالى ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ أن من الشياطين ما هو متمرد، وأن ليس جميعها تحاول الوصول إلى محاولة الاستماع، واستراق السمع.

وبالتالي جعل الله تعالى للكواكب صفتين: أحدهما زينة للسماء الدنيا، وذلك بتناثر الكواكب في فضائها، مع نعمة الاهتداء، إذ يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر. والصفة الثانية: أنها جند من جنود الله تعالى

ضد من يحاول استراق السمع من مردة الشياطين. فيأتيه منها شهاب يحرقه، فيمنعه من مراده. وهنا تظهر عظمة الخالق في عظمة الخلق وعظمة التدبير، والجمع بين مهام الزينة، ومهام الرجم بالشهب، والاستدلال بها على الوقت، وعلى الاتجاهات في ظلمات البر والبحر. ليستنتج منها المتأمل والمتدبر على عظمة الخالق، وأنه إله واحد سبحانه وتعالى، لا شريك له في ملكه، ولا تُصرف العبادة إلا له وحده لا شريك له عَزَّ وجل. وأنه على كل شيء قدير، ومن ذلك البعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

ثم يخبر تبارك وتعالى بقوة ردهم للشياطين ومنعهم من الاستماع إلى الملأ الأعلى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ فإن مردة الشياطين بهذا الرجم، لا يستطيعون سماع ﴿ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره[١] ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ ويُرمون من كل جهة، بحيث لا يستطيع الفكاك من الإصابة. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ويُرمون من كل جانب من جوانب السماء دحورا، والدحر هو الدفع والإبعاد[٢] وفي هذا بيان لما يجده من يتمرد على ما نهى الله تعالى عنه، فإن مصيره العذاب والهلاك. وبما يفيد احذروا وانتبهوا أيها العباد من التمرد على ما أمركم الله تعالى من طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن قدرة ربكم عليكم وعلى غيركم عظيمة من كل وجه، فكما دحر المتمردين من الشياطين فإنه يدحركم بما يشاء من العذاب، وأن جند الله تعالى لا يحيط بها أحد، وأن كل شيء من خلقه هو جند له عَزَّ سلطانه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالمزيد عن حال المردة من الشياطين في منعهم وإهلاكهم ﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ فإنهم مدحورون بمنعهم من مرادهم الوصول إلى الملأ الأعلى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ ولهم في الآخرة عذاب متصف بأنه ﴿ وَاصِبٌ ﴾ أي: دائم لا يفارقهم. وبالتالي فإنهم في الدنيا يُدحرون ويُهانُون ويُمنَعُون، وتحرقهم الشهب، ولهم في الآخرة عذاب دائم لا ينقطع. مما يبين شدة إهلاك الله تعالى لهم في الدنيا وفي الاخرة، وبما يفيد وجوب الاعتبار بعقاب الله تعالى لمن يتمرد على شرعه وأوامره.

ثم يقول تبارك وتعالى عنهم ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ويستثني تبارك وتعالى من ذلك حالة، وهي: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ إلا من اختطف من الشياطين ﴿ ٱلْخَطْفَةَ ﴾

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٠٥)

أي: الكلمة التي يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ثم يلقيها الآخر للذي تحته، فربما ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فأدركه الشهاب الحارق قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يصيبه الشهاب، فيذهب بها إلى الكهنة، ويكذبون معها الأكاذيب. وفي معنى الخطف ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ ما يدل على السرعة في الأخذ، ما يبين ما مكن الله تعالى به الشياطين من القدرات، ولو شاء لما أعطاهم، ولكن حكمة الله تعالى وقدرته وتقديره. قال المفسرون: والمعنى إلا من اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: لحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قال ابن قتيبة: أي: كوكب مضيء، يُقال: أثقب نارك، أي: أضئها، والثقوب: ما تُذكَى به النار[1] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة، يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه. فيذهب بها الآخر إلى الكاهن[2] وفي هذا بيان أن الله تعالى قد يُقَدِّر بحكمته للمارد أن يخطف كلمة، ولو شاء الله تعالى لما تمكن المارد من اختطاف الكلمة، ليبين أن هناك حكمة، كما أنه سبحانه وتعالى قد لا يباشر الجن والإنس بما يستحقون من العقاب مباشرة، فيمهل لهم، لحكمة يعلمها عَزَّ وجل. وهو كذلك ابتلاء للكاهن ولمن يصدق الكاهن. وفي هذا بيان لعظيم ما خلق الله سبحانه وتعالى من المخلوقات التي منها الشياطين، والكواكب، والسماء والأرض وما بينهما من المخلوقات، ليدرك الإنسان عظمة ما خلق تبارك وتعالى، وأنه نوع وجنس مما خلق تبارك وتعالى.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

بعد أن بين وأوضح عَزَّ وجل عظمة ما خلق من الكواكب، والسماء والأرض وما بينهما من المخلوقات، وعالم الشياطين، التي منهم المردة، يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطرح على المشركين وعلى غيرهم سؤالاً

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٨/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤)

للتفكر، من خلال التأمل بالمقارنة بين عظمة ما خلق وبين خلقهم، ليدرك الإنسان عظمة ما خلق تبارك وتعالى، وأن مخلوقات ربهم الأخرى أشد من خلقهم، ليستدلوا بها على ضعفهم، وعلى أن الله تعالى لا يعجزه بعثهم بعد موتهم، ومحاسبتهم على ما كان منهم، ثم الجزاء المستحق لك أحد منهم، فيقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ فاسألهم، هل هم أشد وأعظم خلقاً وتكوينا وقدرة أم الذي خلقنا من السماوات والأرض وما بينها؟ ومنها الكواكب والشهب التي تقتل وتطرد المردة من الشياطين. فيقرر الله سبحانه وتعالى عباده المنكرين للبعث بأنهم قد شاهدوا وعلموا ما هو أعظم مما أنكروا وهو البعث. فوجه تبارك وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يسألهم سؤالاً يقررهم بما يجب أن يقروا به ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ فاسألهم. وقد ورد بلفظ ودلالة الاستفتاء ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ الذي يعني: الجواب عما يشكل[١] للدلالة على أن السؤال هو معالجة لما رَكَّبُوه من التجاهل للشأن الذي بانت وظهرت أدلته وبراهينه، وهو قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فإن قدرته عَزَّ وجل أعظم وأعز وأقدر من إحياء الموتى، فما إحياء الموتى إلا أمر أبسط وأسهل مما خلق، ومما دَبَّر به مخلوقاته في نظامها البديع.

فاستفتهم أيها النبي، بأن تطلب منهم الإجابة التي لا يستطيعون الفوت منها ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ هل هم أشد وأعظم خلقاً وتكوينا وقدرة أم مَنْ خلقنا من السماوات والأرض والملائكة، والجن، وما بينهما، والكواكب السيارة والثابتة التي جمعت بين زينتها للسماء الدنيا، وبين رجمها للشياطين من خلال الشهب التي تقذف مردة الشياطين، وكذلك عالم الجن، الذي منحهم الله تعالى من القدرات ما ليس عندهم.

ثم ينقلهم سبحانه وتعالى في تدرج عميق البيان والأثر إلى ما يؤكد عمق وقوة قدرته سبحانه وتعالى من خلال إعادة تفكيرهم إلى لتأمل في أصل خلقتهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ فأصلهم من الطين المتلاصق الذي يمشون عليه. بما يجعلهم يقرون بأنهم أضعف مما ذكره سبحانه وتعالى مما خلق من السماوات وعوالمها والكواكب العظيمة في تكوينها وهيئتها وقوتها، وارتفاعها. بما يدل على أن إعادتهم بعد الفناء أهون من خلق السماوات والأرض وما بينهما. ليكون الاستفتاء على ما لا يستطيعون إنكاره. فقد كان أصل خلقكم أيها الناس من طين، ليدل على الضعف، فجعل من هذا الضعف قوة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ فأصلهم من الطين الذي يمشون عليه ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ فهم من طين متلاصق، والطين هو التراب المختلط بالماء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الطين الحر الجيد اللزق. وقيل: هو الطين الذي ينشف عنه الماء، وتبقى

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٧٣)

رطوبته في باطنه، فيلصق باليد كالشمع[١] فإذاً كيف يستبعد هؤلاء البعث من جديد بعد الفناء، وهم مخلوقون من هذا المكون الضعيف، وجعلناهم جنس قائم بذاته، وهو جنس الإنسان. فمن كانت قدرته بهذه العظمة، فإنه لا يعجزه إعادتهم بعد فنائهم. فأين محور العجز في ذلك؟ بما يستثير عندهم التأمل والتفكر، والقياس، والتدقيق، فإن جميع المشاهد من مخلوقات الله تعالى وخلق الإنسان تبين وتعلن أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء أبداً، وأن على المخلوق عدم قياس قدرة الخالق على المخاليق، لأنه هو الذي أنشأ أصل الكون من العدم.

فهو سؤال تقريري، يُعَلِّم العباد كيف يفكرون، وكيف يستنتجون، وكيف يُعَلِّمُون ويدربون عقولهم على التفكير الصحيح الذي يتوصلون به إلى الحقائق، ويبرهن لهم بهذا المنهج الاستدلالي على أهمية القياس والاستنتاج والاستنباط الصحيح للحصول على الدلائل الصائبة الحقة. مما يبين أن الكون زاخر بكل ما يقوي الإيمان في كل ناحية من نواحيه، وأن دين الله تعالى قائم على الحقائق والبراهين. ويؤسس لعباده منهج البراهين والاستدلال. بل ويعلمهم كيف يفكرون، وكيف يقيسون ويحللون، وكيف يستنبطون، وكيف يهتدون. فسبحان الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

ثم يخبر الله تعالى عن عنادهم واستقبالهم بالسخرية لِمَا قررهم الله تعالى به ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾ فإنك أيها النبي قد تعجبت من عظيم ما خلق الله سبحانه وتعالى، بينما هم ﴿وَيَسۡخَرُونَ ﴾ من تعجبك. بما يفيد استنكارهم حتى على الشواهد والبراهين والحجج الساطعة البينة. فبدأ البيان بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ الذي يفيد الانتقال من حال تقريرهم بالبعث، إلى حال العجب من إنكارهم لما تقرر به الحق. فإنك أيها النبي قد تعجبت من عظيم ما خلق الله سبحانه وتعالى ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾ بل بلغ من كمال قدرته سبحانه وتعالى وكثرة وتنوع مخلوقاته إلى حيث عجبت منها، وهو تعجب تعظيم لقدرة الله سبحانه وتعالى.

وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿وَيَسۡخَرُونَ ﴾ بما يفيد الاستغراب منهم لك في استعظام خلق الله تعالى، وتقرير البعث به، والنشور والحساب والجزاء، بما يفيد اصرارهم على استبعاد البعث، وأن تعود الحياة للأموات، وأن يعودوا للحياة بعد الموت. وكذلك تشمل الآية الكريمة على دلالة أنك أيها الرسول وأيها المخاطبون عجبتم من تكذيبهم وإنكارهم البعث مع ما يرون من عظيم دلائل قدرة ربكم سبحانه وتعالى. وأعجب من إنكارهم أنهم يستهزئون بك، ويسخرون من قولك أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم. ويسخرون كذلك من تعجبك من عظمة خلق الله سبحانه وتعالى، واستدلالك به على البعث.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٨/٦)

ومن عجيب عنادهم أنهم لا يتعظون بالمواعظ والتذكير بما يعرفون من الحقائق والبراهين ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ فحين يتم تذكيرهم بما غَفِلُوا عنه لا يستجيبون ولا ينتفعون به ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ لا يتعظون به. وقد ورد التذكير عاماً، ليشمل جميع أنواعه، وأول ما يجب أن يتذكروا به من الذكر هو القرآن العظيم. فشمل قوه تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ جميع مجالات التذكير وأنواعه، سواء بما حل بالمكذبين من قبلهم، أو بمخلوقات الله تعالى، أو بتدبير الله تعالى في تصريفه للكون، أو بما يرشدهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن وغيره من المواعظ والعبر، أو بغيرها من أنواع التذكير، فإنهم يُعرضون عنه ولا يتدبرون، ولا يَقْبَلُون به، بل من تماديهم ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ وإذا رأوا حجة من حجج الله تعالى الواضحة، كانشقاق القمر، قابلوها بالاستهزاء. مؤكدين رفضهم للحق بما يحكمون به عليه من الباطل، بأنه ضرب ونوع من السحر ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فوصفوا تلك الآيات الباهرة بأنها سحر، بل مؤكدين زعمهم وباطلهم بأنه سحر واضح مبين، لا شك ولا مرية فيه. فقد حصروا الآيات في السحر، بما يفيد الجزم بأنها لا تخرج عن السحر. فحرف ﴿ إِلَّا ﴾ أفاد حصرهم للآيات والبراهين في السحر، وأنها لا تخرج عنه أبداً. وزيادة في التأكيد إضافة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي: الجلي والواضح والظاهر بأنه سحر. مما يدل على قوة الإعراض منهم، والصدود عن جميع آيات الله تعالى، مهما كان نوعها. مما يفيد أن كفرهم هو عناد، واستكبار، وتطاول على الحق المبين.

ثم عززوا افتراءهم بجزمهم استحالة إعادة العظام وهي رميم ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فاستبعدوا عودة الحياة للأجساد التي أصبحت بالية بعد الموت، وذلك بسؤال واستفهام استنكار، أيمكن أن نُبعث إذا متنا وبُليت أجسامنا؟ سؤال استبعاد يقررون به استحالة عودة الحياة للإنسان بعد أن يتحلل إلى تراب ويبلى، ويكون عظاماً نخرة، خالية مما تحي به الأجساد. فهو قول على سبيل الاستبعاد والإنكار لعودة حياة الإنسان بعد تحوله إلى تلك الحال من التراب والعظام النخرة. ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ سؤال استنكار واستغراب. أيعقل ذلك؟ سؤال استبعاد. وهو في نفس الوقت استهجان نتيجة منتوجهم الفكري الضال، وما توصلوا إليه من استبعاد، قد خلى من ربطه بالقادر الخالق سبحانه وتعالى، الذي أبان لكل مُكذب ومُنكر ما يُوجِب عليه الإيمان بحقيقة البعث بعد الموت. مما يفيد ويُعَلِّم الإنسان بأن عليه أن يركز عند التأمل في عظيم القدرة الربانية التي تجلت عظمتها في الإنسان، وفيما يحيط به من الكون. والتي منها عظمة خلق السماوات والأرض، والكواكب المضيئة، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، وظهور الليل بعد انعدامه، وظهور النهار بعد غيابه. فالذي أعاد ذلك بعد غيابه قادر على أن يعيد الإنسان بعد موته.

ثم يُلحِقُون ذلك الاستبعاد باستنكار آخر ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أو يُبعث آباؤنا الذين مضوا من قبلنا، وبلت أجسادهم؟ سؤال استغراب واستنكار. فيوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم: نعم ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ قل يا أيها الرسول لهم: نعم سوف تُبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ وأنتم أذلاء صاغرون، وهو أشد معاني الصغار. فكلمة ﴿دَٰخِرُونَ ﴾ تفيد أشد معاني ودلالات الصَّغَار.

ثم يبين لهم سبحانه سهولة البعث، بقوله عزَّ وجل ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فما هي إلا مجرد ﴿ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ صيحة واحدة من إسرافيل، بنفخه في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ فإذا بهم فجأة يبصرون ما يفعل الله تعالى بهم. وسميت زجرة لتعبر عن الأمر بقوة وشدة، فهو الزجر الذي هو الأمر الشديد، الذي يُلزم المأمور بالاستجابة وسرعة المطاوعة وعدم المخالفة، مع سرعة القيام بما أُمِرَ به أو الانتهاء عما نُهي عنه. فهي تفيد الأمر بقوة وشدة. ولذلك ورد النظر منهم بطريقة المفاجأة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ بما يبين سهولة البعث على الله تعالى، واستبعاد ما يتوهمون من صعوبة التحول، بل حتى الزجرة كانت واحدة ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ لبيان حقيقة البعث في أسهل ما يكون من شأنه، لأن قدرة الله تعالى عظيمة، لا يقيسها ولا يدركها أحد. بما يُوجب الإيمان بالغيب قياساً على عظيم تدبير الله تعالى مما يشاهده الإنسان في الكون كله، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرفعه القرآن العظيم.

ثم يبين تبارك وتعالى لهم ولغيرهم ما يكون منهم عندما ينظرون نظرة المفاجأة التي أذهلتهم ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ فبادروا بالنداء الذي يعبر عن المفاجأة والذهول، مع الاهتمام، من شدة الهلع والخوف مما يعاينون من أمور العذاب، وشدائده ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا ﴾ يا هلاكنا، ويا سوء حالنا. فدعوا بالويل على أنفسهم، وهي من الأقوال التي يقولها من يرى أنه لا مفر ولا حيدة له عما يعاينه ويواجه. فلا حيلة لهم ليعترفوا بما أنكروه من قبل، حال حياتهم الدنيا، فآمنوا وقرروا في ذلك الوقت، فقالوا ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ هذا يوم الجزاء الذي كنا به نُكَذِّب. وهو تفسير وبيان لندائهم بالويل ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ هذا يوم الجزاء. قال السدي

رحمه الله تعالى: هذا يوم الحساب[1] فهذا هو اليوم الذي يحصل لنا به الجزاء لكفرنا وإنكارنا للبعث بعد الموت، وتكذيبنا للمرسلين في حياتنا الدنيا.

وهنا ترد عليهم الملائكة على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ هذا هو اليوم الذي يتم فيه القضاء بين الخلائق، فيفصل فيه بين المؤمن والكافر، وهو الذي كنتم به تكذبون وتنكرون. فهذا هو اليوم الذي يتم فيه الفصل بين الخلائق فيتمايزون. والفصل يكون بالحساب والجزاء، فينفصل فيه أهل الطاعة والإيمان بما فازوا به، وينحدر فيه أهل الكفر والنفاق إلى النار وبئس المصير. فقد كانوا ينكرونه ويكذبون به في الدنيا. وفي هذا عرض واضح من الله سبحانه وتعالى لِمَا سيكون من حال المكذبين في الآخرة، بما يفيد أن عليكم أيها المكذبون باغتنام حياتكم الدنيا، فآمنوا بما رأيتم من الحجج والآيات التي تتعايشون معها في الدنيا، من خلق السماء والأرض وما بينهما، والكواكب، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، ومن تعاقب الليل والنهار، وفي خلقكم من نطفة، فإذا بكم أناس تخاصمون وتجادلون. فإن الذي خلقكم وخلق هذا الكون قادر على كل شيء، ومنه البعث والحساب والجزاء. فآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم.

﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تم عرض بعضاً من قصور فهم المكذبين ليوم البعث، ومفاهيمهم الزائغة، وما تم الرد به عليهم به من ربنا تبارك وتعالى بالبيان الواضح الذي يصحح تفكيرهم إن أرادوا الحق والهدى، مع البيان لهم ولعموم الناس بما يكون من حالهم يوم البعث، ينتقل السياق الكريم إلى الإخبار بما يكون من يوم الحشر، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ فجمع الأمر ثلاث فئات في وقت واحد. حيث يأمر الله تبارك وتعالى الملائكة بأن تحشر الظالمين لأنفسهم وللحق ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وكذلك ﴿ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ أي: مع أزواجهم ممن هم على شاكلتهم من الكافرين، وكذلك ﴿ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ أي: آلهتهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥١٨)

التي كانوا يعبدونها من دون الله عَزَّ وجل، فجمع الأمر ثلاث فئات في وقت واحد للعذاب ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ ويصدر الأمر من الله تعالى للملائكة مع بيان طريقة أخذهم لأهل النار بأنه بطريقة الحشر ﴿ٱحْشُرُواْ ﴾ وهو الجمع لهم، ثم سوقهم سوقاً مُذلاً مهيناً، لما في دلالة الأمر من الإهانة والإذلال في حق المجرمين. وسماهم سبحانه وتعالى: بالظلمة ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الحق، وظلموا من اقتدى بهم، وظلموا المرسلين، واتهامهم بما ليس فيهم. وتضمنت دلالة ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ جميع نظرائهم وأشباههم ممن شاكلهم وشابههم من أهل الكفر، ومنهم زوجاتهم المشركات. وينظم إليهم كذلك ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ أي: جميع معبوداتهم من الأصنام.

ثم يصف الله تبارك وتعالى تلك المعبودات، ومآل العابد لها والمعبود، بأنهم إلى جهنم وبئس المصير. احشروهم وما كانوا يعبدون ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فكل معبود هو من دون الله عَزَّ وجل، من الأصنام والأنداد وغيرها. فجملة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ توضح قدر تلك المعبودات وعجزها، بأنها تحت سلطان الله تعالى، فكل معبود غير الله تعالى هو من دونه عَزَّ وجل ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فاذهبوا بهم إلى طريق جهنم، ليفيد سوقوهم جميعاً إلى جهنم. فهي هداية إلى مكروه لهم ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وورد سوقهم إلى جهنم بدلالة ﴿فَٱهْدُوهُمْ ﴾ لإفادة التنقص والازدراء والتهكم بهم.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى الملائكة بما يصنعون بهؤلاء الكفرة ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ واحبسوهم قبل وصولهم إلى صراط الجحيم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ فهم مسؤولون عما كان منهم من الكفر، والإنكار لما جاء به المرسلون. لإفادة المحاسبة وما يتبعها من التبكيت والإهانة، والفضيحة لهم والتحقير. ثم تزداد إهانتهم، بأن يُقال لهم ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ مالكم لا ينصر بعضكم بعضا. لإفادة الضعف والهوان، وما كانوا عليه من الضلال. وفي هذا إعلام الكفار بما سيكون عليه حالهم، فقد بين لكم ربكم ما أنتم مُقبِلُون عليه، ليفيد تحذير الأحياء، ووعظهم بما يدفعهم به إلى تدارك أمرهم في الدنيا بطاعة خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن اختلاف حال الكفرة في ذلك الموقف، بأنه حال مخالف ومضاد لحالهم في الدنيا، عندما كانوا يتمردون، ويتنمرون، فيقول عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴾ منقادون لعجزهم عن كل سبب يخلصهم مما هم فيه. فإنهم اليوم في حالة الخضوع التام لقوة سلطان الله تعالى، والرعب والخوف والهلع والانكسار، مما يعاينون ويشاهدون من رهبة ما هم فيه. وأيضاً من أحوالهم في ذلك الموقف، وهم يتخاطبون فيما بينهم ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: فأقبل الكفار بعضهم على بعض يتساءلون فيما بينهم. ولما أن الإقبال هنا كان عاماً فإنه يشمل الإقبال العام بين بعضهم البعض، والإقبال بين الأتباع والمتبوعين من الرؤساء والوجهاء. وقال قتادة رحمه الله تعالى: أقبل الإنس على الجن[١] وهو ما يقوله الكفار للشياطين الذين أغووهم عن الحق في الدنيا. وهذا الإقبال كائن على التساؤل فيما بينهم ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ سؤال مخاصمة ولوم، وسؤال توبيخ وتقريع وتأنيب. كقوهم: لِمَا غررتم بنا، فيرد عليهم الرؤساء: أنتم الذين قبلتم ما كان منا.

فيقول التابعون للمتبوعين من الرؤساء والمؤثرين عليهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ **إنكم** كنتم في الدنيا تأتوننا عن اليمين، أي: من جهة الحق الذي هو الدين. قال الشوكاني وغيره عن دلالة ﴿ ٱلۡيَمِينِ ﴾ أنها عبارة عن الحق[٢] فإنكم تأتوننا من جهة الحق والخير والفضل، وجميع ما يخص طاعة الله تعالى، فتصدوننا عنها، لتحرفونا عن دين الله تعالى، وفي المقابل تزينون لنا ما أنتم عليه من الباطل. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن فيها ثلاثة أقوال: أحدها: كنتم تقهروننا بقدرتكم علينا، رواه الضحاك. والثاني: من قبل الدين، فتضلونا عنه، قاله الضحاك، وقال الزجاج: تأتوننا من قِبَل الدين، فتخدعونا بأقوى الأسباب. والثالث: كنتم تُوثِّقُون ما كنتم تقولون بأيمانكم[٣] وجميع تلك الأحوال حاصلة بينهم. فجمعت دلالة الآية الكريمة جميع أحوال الإتيان عن اليمن، حتى ينصرفوا عن الحق ولا يتبعونه.

فيرد عليهم رؤساؤهم المتبوعون من أهل الضلال من شياطين الإنس والجن، قائلين لهم بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ لم تكونوا مُقرين بالإيمان والتصديق والتوحيد، فنفوا عنهم الإيمان في الدنيا، فلم تكونوا من أهل الإيمان، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قالت الجن للإنس: مجيبة لهم: بل لم تكونوا بتوحيد الله تعالى مُقِرِّين، وكنتم للأصنام عابدين[٤] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: تقول القادة من

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٢٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٨٦)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٢)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٢٦)

الجن والإنس للاتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان[١] مما يدل ويفيد أنها أقوال من القادة والرؤساء الضالين، وسواء كانوا من الجن أو الإنس، بما يفيد التبري منهم، وأنه لم يكن لهم عليهم سلطان، بل الأمر هو: أن دعوهم فاستجابوا لهم. بما يفيد لا تلومونا ولوموا أنفسكم. وفي هذا بيان من الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون، ليفيد التحذير، ووجوب لزوم الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولزوم الحذر من الغواية ومن الغاوين.

ثم يؤكد قادة الضلال من الإنس والجن أن العلة والسبب من أنفسكم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾ فلم يكن لنا عليكم سلطان من القهر، فنقهركم به، ونجبركم ونكرهكم على اتباعنا، ولم نكن نملك الحجة التي نضاهي بها حجج المرسلين فَتُرْغَمُون بها على متابعتنا. فالنتيجة إذاً هي: أنكم كنتم متجاوزين الحد في الكفر ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾ مبالغين في ضلالكم حتى وصلتم للطغيان، الذي هو المبالغة في الشيء نحو الضلال، أي مبالغتهم في المعصية من الكفر والمحاربة لدين الله تعالى. وبما يفيد لا ترموا علينا طغيانكم وكفركم، بل أنتم الملومون بقوة طغيانكم. مما يبين أنها محاجة قوية تحدث بين الأتباع والمتبوعين، فالمتبوعين يريدون إلصاق سبب كفرهم بالأتباع، والأتباع يتبرؤون ممن تبعهم. لتعطي وتُظهر حقيقة ما سيكون عليه الأمر والشأن يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، ليكون ذلك إنذار من الله تعالى للأحياء عما سيكون عليه الحال كما هو يوم القيامة. فاحذروا ذلك بطاعة ربكم، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يُعلنون النتيجة على أنفسهم بأنفسهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ فقد وجب علينا قول ربنا، وهو الذي ورد في سورة هود، حيث قال سبحانه وتعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ وفي سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ فيعلنون اعترافهم، ويعلنون النتيجة التي يحصلون عليها ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ فجميعنا ذائقون العذاب، بتحصيله كما أخبر به ربنا تبارك وتعالى. فالمضل والضال في النار سواء.

ثم يبين الرؤساء أن شأنهم مع المتبوعين هو أن دعوهم للكفر فاستجابوا ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾ دعوناكم إلى الضلالة فاستجبتم، فأصبحنا جميعاً سواء ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾ فقد كنا غاوين، ولم نكن مستقيمين، فاللوم على أنفسكم، بأن استجبتم لدعوتنا مع أننا كنا غاوين، بما يفيد أن غوايتنا كانت واضحة، فلماذا لم تمتنعوا،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦/٤)

بل قبلتم وأقبلتم على الغواية، فأصبحنا متساوين في الغواية. وبذلك حصل الاعتراف والإقرار منهم بما يستوجب عليهم العذاب، وكل هذا من عدل الله سبحانه وتعالى مع العباد، بل من رحمته أن أورد هذا البيان لحال الكافرين بما سيكون قبل أن يصلوا إلى يوم الحساب، ليفيد التحذير والإنذار به لجميع العباد إلى أن تقوم الساعة.

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

بعد تلك المحاجة بين التابعين والمتبوعين من الكفرة المجرمين، يخبر الله سبحانه وتعالى بمآل الجميع من الكفرة الضالين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فكما كانوا في الدنيا بالكفر مشتركون، فإنهم كذلك اليوم في الآخرة مشتركون في العذاب، وكل بحسب ما كان منه من البغي والظلم. ثم يخبر سبحانه وتعالى الناس أجمعين بما يفيد التحذير من أسباب ذلك العذاب ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: نفعل بالمجرمين بمثل ذلك أيها الناس، فاعتبروا يا أهل الكفر والإجرام.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بإجرامهم الذي بلغ منتهاه من المجاوزة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ إذا قيل لهؤلاء الكفرة المجرمين: وحدوا الله تعالى، بقولكم وفعلكم: لا إله إلا الله، فإنهم ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يستنكفون، ويتعالون عن ذلك، وعن قبول توحيد الله عَزّ وجل، فيتعاظمون عن قولها. ويعللون استنكافهم وتكبرهم بما أخبر به سبحانه وتعالى عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ فيقولون وهم يستهزئون: أنترك آلهتنا ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ يقصدون به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ وصفوه عليه الصلاة والسلام بالشاعر وبالجنون. وفي هذا تعظيم منهم لأنفسهم ولمعبوداتهم من الأصنام، واستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم بصفتين: شاعر، ومجنون. من باب التنقص منه عليه الصلاة والسلام، ومن دين الله تعالى الذي جاء به من الله عَزَّ وجل. مما يدل ويفيد قوة المكابرة، مع الإصرار على الباطل.

والمتأمل يجد أن كلامهم متناقض، إذ أنه ينقض بعضه بعضا، إذ لا يمكن أن يأتي من المجنون كلاماً منمقاً من الشعر، على وزن وقافية، ليثير به من يخاطبهم. وفي هذا دلالة على المبالغة في الافتراء. فهم يريدون وصف القرآن بالشعر، ولا أحد ممن يعرفون الشعر يصف القرآن بالشعر، فيقول بما يقولون به، ليدل على أنه افتراء، ومن باب المعاندة. فلا أحد من العقلاء يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول إنه مجنون.

بل يجزم بأنه يتكلم بكلام هو من عند الله تعالى، كما قال ابن الوليد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. فكلام أبو الوليد هذا مع شركه هو اعتراف بأن قومه يكذبون ويفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن المكابر يتلمس الكذب والافتراء على الحق، بما يبرر لنفسه ما هو عليه من السوء.

فيرد الله تبارك وتعالى على بهتانهم ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فبدأ الرد عليهم أولاً بالنفي ﴿ بَلْ ﴾ أي: ليس الأمر على ما قالوا، بل إنه ﴿ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بالحق، الذي هو القرآن الكريم، والتوحيد، والدين الكامل. وقد جمعت دلالة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه حق، فالقرآن حق، وسنته وهديه حق، والعبادات حق، ومكارم الأخلاق حق، وأحكام الشريعة حق، وما نهى عنه من الشرك ومن منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء حق. فجميع مفردات دين الله تعالى حق، وخير وفضل على العباد.

ثم عمم سبحانه وتعالى التزكية على جميع المرسلين ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: وصدق جميع المرسلين، وكذلك صدق صلى الله عليه وسلم كما صدق من قبله جميع المرسلين الذين كانوا قبله فيما بلغوا به أقوامهم. ليفيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاء بما جاء به الذين من قبله من المرسلين، فلم يكن بدعاً من الرسل، بل مطابق وموافق لهم. بما يؤكد به أنه لا عذر لمن كفر من أي وجه، فقد سد الله تعالى عليهم كل تهمة يخترعونها ويفترونها.

وتضمن قوله تعالى ﴿ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ التزكية للمرسلين جميعاً فيما جاؤوا به، وكذلك فيما أخبروا به، ومن ذلك ما سيجده الكافرون من العذاب ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ إنكم أيها المكذبون بالمرسلين لذائقون أشد العذاب الذي تتوجعون من شدته. بل وصف أثر فعل العذاب بالذوق. إذ وصف أثر العذاب بقوة ما يتذوق الإنسان بلسانه، والتي هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً. فَقَرَّب لهم تصور شدة ألم العذاب بقوة أثر استطعام جارحة اللسان.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن كمال عدله ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فما تجزون أيها الكفرة إلا بما كان منكم من أعمال الكفر والجحود والتكذيب، بما يفيد ويعني نفي ظلم الله تعالى لهم، فلم ولن نعاقبكم على أمر لم تفعلوه.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

وبعد أن عرض سبحانه وتعالى حال الكفرة المجرمين، يخبر ويبين عَزَّ وجل حال عباده المؤمنين بأسلوب الاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ إلا عباد الله تعالى الذين أخلصهم ربهم له بالطاعة والامتثال. فإنهم لا يذوقون العذاب الأليم. فبدأ وصفهم بالاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذي يفيد التميز. إلا عباد الله تعالى الذين أخلصهم ربهم له بالطاعة والامتثال. فإنهم لا يذوقون العذاب الأليم، ويتجاوز الله تعالى عن سيئاتهم وسماهم بالمخلصين ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصوا العبادة لربهم وحده لا شريك له. فعباده الذين أخلصوا له الدين فإنهم مستثنون من العذاب. ليبين منزلة الإخلاص، ومكانة التوحيد. ومن حفاوة الاحتفاء بهم أن نسبهم سبحانه وتعالى إليه من حيث العبودية ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ لبيان أهمية ورفعة إخلاص العبودية لله تعالى وفق ما شرع. وزكاهم بالإخلاص، فسماهم بالمخلصين ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهذا فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى. مما يبين رحمة الله عَزَّ وجل، وأنه كريم، إذ يُكرم عباده المخلصين بأعظم مما فعلوه. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين أجمعين من عباده المخلصين.

ومن دقائق البيان أن صفة الإخلاص ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ تحمل دلالتين: الدلالة الأولى: باعتبار فتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته. والدلالة الثانية باعتبار كسر اللام، فيكون المعنى: الذين أخلصوا لله العبادة، بتوحيده، وإفراده بالطاعة والعبادة والامتثال. قال القرطبي، والشوكاني رحمهم الله تعالى: قرأ أهل المدينة والكوفة (المخلَصين) بفتح اللام: أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وتوحيده. وقرأ الباقون بكسرها. أي: الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد[١] فأفادت القراءتين: أنهم كانوا كما اصطفاهم ربهم، فجمعوا بين الصفتين: اصطفاء من الله تعالى، فجعلهم عباده المخلَصين بالطاعة والانقياد وتحقيق التوحيد لله سبحانه وتعالى. وكانوا كما اصطفاهم فأخلصوا لربهم بالتوحيد والانقياد. فجمعت اللفظة الكريمة الدلالتين المتضافرتين. فلا شك أن الله تعالى قد أعان من آمن واصطفاه وأخلص له وحده لا شريك له، ليكوم من عباده المؤمنين، ليعلم أن فضل الله تعالى عليه عظيم، فلولا هداية الله تعالى وتوفيقه وإعانته لما تحقق للمؤمن إيمانه. وكذلك فإن الله تعالى لا يجير أحداً من النار ما لم يكن مؤمناً، مخلصاً العبادة لربه تبارك وتعالى. فلا يقبل الشرك أبداً عَزَّ في علاه، وعَزَّ جاهه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٥٢/١٥) والشوكاني، فتح القدير (٣٩٢/٤)

وقد تكررت هذه الآية الكريمة في هذه السورة خمس مرات. ليدل على تمجيد الله تعالى لعباده المخلصين، وبيان عنايته بهم. مما يبين منزلة ومكانة طاعة الله تعالى وثواب أهلها، ومنزلتهم عند ربهم تبارك وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حال هؤلاء العباد المخلصين، فيقول عزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أولئك المستثنون من العذاب، الذين هم عباد الله المخلصين ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ معلوم في أوصافه. قال قتادة رحمه الله تعالى: يعني الجنة[1] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: معلوم في حسنه وطيبه، وعدم انقطاعه[2] ومن جميل البيان ودقائقه هو: التنويه عن عباده المخلصين باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ للفت الانتباه، بالتنبيه على أنهم هم المخلصين، وليس غيرهم المستحقون للرزق المعلوم، وهو الجنة، وما فيها مما هو مذكور من الله تعالى.

ثم يتدرج البيان من الله العظيم إلى تفصيل شيء من نعيم الجنة التي يجدها عباده المخلصين، فيقول عزَّ في علاه ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ فواكه لا حصر لها، مع الإكرام العظيم، من الحفاوة وكريم المنزلة. ودلالة ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ تجمع جميع الأنواع، وهو جمع فاكهة، فتشمل جميع أنواع الثمار على اختلاف أشكالها وأحجامها وألوانها، وطعمها، وروائحها الزكية. وفي تخصيصها بالذكر ما يدل على أنها أطيب ما يأكلونه، وفي ذكرها ما يغني عن ذكر غيرها من نعيم المطاعم، باعتبار أنها أنفس المأكولات. وإضافة إلى ذلك النعيم. فهناك نعيم آخر ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ ولهم من الله تبارك وتعالى إكراماً عظيماً، من الحفاوة، ورفعة المنزلة، برفع درجاتهم، وسماعهم لكلام رب العالمين، ورؤيته في الجنة عزَّ وجل، وأنهم مَخْدُمُون ومُرَفَّهُون، ومُنَعَّمُون بما أعطاهم الله عزَّ في علاه.

ثم يزداد الوصف من الله تعالى لنعيم الجنة ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهي جنات كثيرة، قد اتصفت بالنعيم الذي لا يزول ولا يحول، وقد انتفى منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء.

فَبَلَّغْنَاهُم المأمولَ والمطلوب في الآخرة، وهي جناته سبحانه وتعالى الموصوفة بالنعيم ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بما يفيد كمال النعمة وكثرتها، التي لا حدود لها، والتي فيها طيب العيش، ولينه وخصبه، الذي لا يزول.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن مزيد نعيمها، فيقول عزَّ وجل ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ يجلسون على سرر متقابلين فيما بينهم. فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٨)

الاجتماع. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر(١) مما يبين كرامتهم، وأن أهل الجنة يتقابلون، ويجتمعون، ويجلسون مع بعضهم البعض في أدب من المقابلة التي لا يتدابرون فيها. وهو فضل من الله تعالى عظيم، مما يستوجب السعي الحثيث في طاعته تبارك وتعالى. كما يفيد ذلك أن من آداب الجلوس هو عدم التدابر، بأن لا يعطي الجالس قفاه وخلفه لغيره، بل يكون الجلوس مقابلة، ما أمكن ذلك، إلا أن تكون هناك ضرورة وحاجة.

ومن حال أهل الجنة وسعادتهم أن هناك من يدور عليهم من الغلمان بما يشربون من الماء الجاري، ومن خمر أنهار الجنة ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾ والطواف هو التردد على الجالسين المتقابلين من أهل الجنة ﴿ بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾ بكأس من ماء طاهر. فالمعين هو: الماء الطاهر الجاري، فَيُطاف عليهم بكؤوس من خمر، بيضاء في لونها، ولذيذة في شربها، من أنهار جارية لا تنقطع، وليس فيها ما هو من خمر الدنيا من الأذى للجسم وذهاب العقل. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يطوف الخدم عليهم بكأس من خمر جارية، ظاهرة لأعينهم غير غائرة. وعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: كأس من خمر جارية، والمعين هي: الجارية. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: كل كأس في القرآن فهو خمر. ومن فوائد الدلالات ما قاله السدي رحمه الله تعالى: أن الخمر والكأس عند العرب هو كل إناء فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب لم يكن كأساً، ولكنه يكون إناء(٢) وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الكأس: الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: الكأس: الإناء الذي فيه الخمر. وتقع الكأس على كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس. والمعين الخمر، يجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون(٣) مما يبين أن خمر الجنة نعيم في طعمه، وفي كثرته، وصفائه ولونه، وليس فيه ما يؤذي شاربه كخمور الدنيا.

ومن أوصاف خمر الجنة ما قاله سبحانه وتعالى عنه بأنه ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ فلونه أبيض من قوة النقاء، كاللبن، وأما طعمه فهو ﴿ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ فطعمه موصوف باللذة، التي هي: صفة لطعمه بأنه مرغوب ومحبوب لدى شاربه، فيتلذذ به وهو يشربه ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴾ فلا تمرضهم بأي مرض، وهو معنى ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ ﴾ ولا تغتال عقولهم، وهو معنى ﴿ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي: لا تغتال

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٠/١٩-٥٣١)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩٣/٦)

عقولهم، فتخلفها، ولا يُصاب شاربها بأي أذى، فقد انتفى منها كل أذى. وفي ذلك تزكية وبياناً وتنزيهاً لها عن خمور الدنيا. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني لا تؤثر فيهم غولاً، وهو وجع البطن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وقتادة وابن زيد، كما تفعله خمر الدنيا. وقال أيضاً: والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن، وذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنزهها عن هذه الخصال[1] وفي ذلك ثناء ومدح لخمر الجنة، وأنها مخالفة لما هي عليه خمور الدنيا.

ومن نعيم الجنة كذلك قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ أي: العفيفات اللاتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، فليس لهن طمع في غير أزواجهن. وأصل القصر أنه الحبس والمنع، فلا ترى أحسن وأجمل منه. وكذلك قصرن طرف الأزواج عن غيرهن، فلا يرى الزوج أحسن وأجمل من زوجاته. كما أنهن حِسَان العيون. فجمعت دلالة الوصف تلك الأوصاف التي تعطي وتبين غزارة دلالة كلام الله تعالى، الذي تعاظم في نسقه، ووصفه، ودلالاته، وفي صوت كلماته، وإرشاده في كل وجه من الخير والعطاء. مما يفيد أن قلوب أهل الجنة فيما يتعلق بالأزواج مقصورة على ما عندهم، مما يجعل القلب في سعادة تامة، فلا يتشوف لغير ما أعطاه وخصه الله تعالى به، سواء في حق الزوج أو في حق الزوجة.

ثم يزداد الوصف لتلك الزوجات، فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ فأوصافهن تشبه اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، والمحفوظ، إشارة ودلالة على أنه لم تمسهن الأيدي، كونهن مصونات، كالبيض في عشه مكنون، بالحفظ، ويفيد كذلك جمال بياضهن. مما يفيد أنهن غاية في الجمال والحفظ والصون.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بطرف من أحوال أهل الجنة، عن تساؤلهم فيما بينهم عند حديثهم مع بعضهم البعض، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فتوجه بعضهم إلى بعض في الحديث الذي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨/٤)

يتساءلون فيه عما كانوا عليه في الدنيا، وما هم عليه في الجنة، وهذا من تمام النعمة أن يصل الإنسان إلى الغاية والمبتغى. وامتد بهم التساؤل في حديثهم إلى أن قال أحدهم ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ أي: فقال واحد من الجلساء أثناء اجتماعهم في الجنة: لقد كان لي في الدنيا صاحب ملازم لي من الكفرة بالبعث، ولم يتم تعيين من هو هذا القرين في الآية الكريمة، ليشمل كل قرين: كالصاحب الكافر في الدنيا، أو الشيطان القرين، فاستوفى كل ملازم ومصاحب لصاحبه، فأسلم هذا المتحدث، ولم يُسلم هذا الصاحب، فيحاول الذي لم يُسلم تشكيكه في اعتقاده، ليصده عن إيمانه وعن التصديق بالحق، طمعاً في بقائه على كفره. مما يفيد أهمية الحذر من كل مصاحب يدعوا إلى الشر، وأن من لوازم الإنسان أن ينظر إلى الحق فيتبعه.

ويتابع ذلك الصاحب القرين في محاولته لتشكيك صاحبه، ليعيده إلى الكفر، وذلك بسؤال لوم وتشكيك ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ يسأل تساؤل إنكار ولوم له على تصديقه وإيمانه بالبعث والحساب والجزاء: كيف تصدق بالبعث الذي هو في غاية الاستبعاد، بعد أن تُبلى أجسادنا، فهل تصدق بذلك؟ سؤال عتاب وتكذيب، ينتغي به أن يكذب مثله، فيجره نحو التكذيب ثم الكفر، بل ويؤكد استبعاده، بسؤال واستفهام يحمل الاستنكار والاستبعاد ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ فهل يُعقل أننا إذا متنا، وفقدنا الحياة، وتحللت أجسادنا إلى تراب، وأصبحنا عظاماً لا جسد عليها ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي: أيمكن أن نكون محاسبون ومجزيون على أعمالنا بعد أن بليت أجسادنا، وأصبحنا عظاماً بالية، محاولاً بذلك أن ينحرف بصاحبه عن الإيمان. ثم ينتقل هذا المؤمن بحديثه مع جلسائه من أهل الجنة إلى العزم على رؤية ذلك القرين، وما هو فيه من العذاب ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ هل لكم أن تتطلعوا على أهل النار؟ لتروا ذلك القرين الكافر.

ثم حصل الاطلاع على أهل النار ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فاطلع ذلك المؤمن على أهل النار، فرأى قرينه في وسط جهنم. وليس في طرف منها، للدلالة على تمكن كامل العذاب منه. لأن دلالة ﴿ سَوَآءِ ﴾ تفيد الوسط، أي وسط الشيء. وسُمِّيَ الوسط سواء، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب[1] ونسأل الله تعالى السلامة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: في وسط الجحيم[2] مما يبين مآل الكافر وشدة عذابه، بأنه في وسط جهنم. وعندما رآه قال المؤمن للكافر ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ لقد أوشكت أن تغويني. فبدأ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٤٦-٥٤٧)

قوله له بالقسم بالله تعالى ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ ﴾ أي: والله ﴿ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾ لقد كدت وأوشكت أن تغويني، فأكون مثلك في النار. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى في معنى ﴿ لَتُرۡدِينِ ﴾ تُوقعني في الردى، وهو الهلاك، وأصل الردى: الموت. ثم شاعت استعارته لسوء الحال. والمعنى: أنك قاربت أن تفضي بي إلى حال الردى بإلحاحك في صرفي عن الإيمان بالبعث لفرط الصحبة[١] وفي هذا البيان من المؤمن للكافر ما يفيد: إثارة الندم والحسرة على الكافر، بما كان منه من الكفر، وليبين له نعمة ثباته على الإيمان بفضل الله تعالى. وليكون هذا الإخبار بالبيان من الله تعالى إنذار وبلاغ لكل حي بأن يأخذ حذره من الغواية والغاوين، وأن يستفيد من حال هذا المؤمن الذي ثبت على إيمانه، ولم يغتر بزيف القرين وتزيينه للكفر، بأن لا يتأثر بكل شبهة وشهوة. فهي موعظة بما سيكون من حال أهل الجنة وأهل النار. بل أورد الله تعالى البيان عنها بصيغة الماضي، ليفيد تأكيد التحقق، وليعيش الْمُخَاطَب حقيقة كائنة لا محالة.

ثم يؤكد المؤمن نعمة الله تعالى عليه بالثبات ﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ فلولا نعمة ربي عليَّ بالإسلام والثبات على الحق ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ لأحضرت معك في النار، فكنت معك في النار محضراً. فلم يجعل نعمة الثبات لنفسه وإرادته، بل نسبها إلى الله عَزّ وجل، لأنه تبارك وتعالى هو الموفق والهادي. وليدرك كل مؤمن أن هدايته وثباته على الحق هو بفضل من الله تعالى. فلا حول ولا قوة لأحد من خلقه إلا به عَزَّ وجل. مما يستوجب الدعاء بالثبات، والتوكل على الله جَلَّ في علاه.

ثم يعود المؤمن إلى مخاطبة جلسائه الذين معه في الجنة، بسؤال يقرر فيه قوة ما هم فيه من الاغتباط والسرور، من خلال هذا السؤال التقريري، الذي يقرر به نعمة الخلود في الجنة، التي لا موت بعدها أبداً ﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ أحقاً أننا مخلدون؟ سؤال تقريري، يعبر به عما هم فيه من الاغتباط، بما أعطاهم الله تعالى من الخلد في الجنة. فما نحن بميتين ﴿ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فما نحن بميتين غير موتتنا الأولى التي كانت في الدنيا ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وما نحن بمعذبين بعد دخولنا الجنة. ليفيد التعجب المملوء بالاغتباط والسرور الذي هم فيه من النعيم.

ثم يرشد الله تعالى العباد بما يحثهم على ابتغاء هذا الفوز بالسعي الجاد ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ إن هذا الذي حصل عليه أهل الجنة لهو الظفر والفوز والربح والمكسب العظيم الذي يجب أن يعمل له كل أحد من الناس في هذه الحياة الدنيا، بما يفيد الزموا طاعة ربكم، وامتثلوا بما جاءكم به الرسول صلى الله عليه

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٩٨/٩)

وسلم. فلا أعظم مما أوضحناه لكم، فإنه ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ فلمثل هذا الفوز يجب أن يعمل له العاملون الراغبون فيه. فإنه الظفر والربح الذي يستحق أن يعمل له كل عامل في الدنيا من الناس. ليفيد أن من أهمل العمل للآخرة فقد خسر الفوز العظيم، ليحصل بدلاً منه على الخسارة العظيمة. ليعطي بذلك بياناً بأن ملذات الدنيا وشهواتها زائلة، بينما ثمرة الآخرة باقية لا تنقطع أبداً، فهي الجديرة بأن يعمل لها كل عامل يريد السعادة الأبدية.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثم يحث الله تعالى ويُرَغِّب عباده في ابتغاء الخير بأسلوب المقارنة بين أمرين وحالين متضادين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أفذلك الذي سبق أن بيناه لكم عن نعيم الجنة هو الخير؟ أم من كان طعامهم ﴿ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ طعام أهل النار، وهي شجرة قد جعل الله تعالى مخرجها من قعر جهنم، فأصلها في منتهى قعر جهنم، وترتفع أغصانها إلى أعلى جهنم، طعاماً لأهل النار، فهو طعام تعذيب لهم.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من الوصف لهذه الشجرة ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهي اختبار وفتنة للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وبالتكذيب بها، لأنهم قاسوا نار الآخرة على نار الدنيا التي تحرق الشجر، متناسين عظمة قدرة الله تعالى، فهو الذي منح الخصائص للأشياء، وهو الذي يبطل منها ما يشاء. فقد جعل سبحانه وتعالى النار على نبيه وخليله إبراهيم برداً وسلاماً، كما قال عَزَّ وجل عن ذلك في سورة الأنبياء ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ فليس هناك ما يمنع أن تكون شجرة الزقوم طعام أهل النار.

ثم يخبر تبارك وتعالى بالمزيد عنها ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي: أن مخرجها من قعر جهنم، فأصلها في منتهى قعر جهنم، وترتفع أغصانها إلى أعلى جهنم ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وأما ما يطلع من ثمارها فإنه يشبه رؤوس الشياطين. وورد التشبيه برؤوس الشياطين، مع عدم معرفة الإنسان

بصورة وشكل الشياطين، فيكون الوصف لذلك هو من باب الاستقباح والتهويل، وذلك لقبح الشياطين، ومن ذلك رؤوسهم. وليستغرق الخيال في القبح إلى أقصاه، ويتخيله في أبشع ما يكون في خيال الْمُخَاطَب. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه قد استقر في النفوس قُبح الشياطين، وإن لم تُشاهَد، فجاز تشبيهها بما قد عُلِم قُبحه[1] فهو أسلوب في استثارة الفكر. وهو مماثل لما يستعمله الإنسان في الخيال عند الوصف لبعض الأمور. ثم يخبر تبارك وتعالى بما يكون من أهل النار مع هذه الشجرة الخبيثة ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ فبالرغم من بشاعتها، ومرارتها إلا أن أهل النار يملؤون بطونهم منها، لما يجدون من شدة الجوع، ولا يجدون غيرها، على كرهها. ليفيد شدة العذاب الذي هم فيه. فإنه عذاب من كل وجه. ليفيد التحذير من الكفر ومسلكه، ومآل صاحبه ونهايته.

ومع هذا العذاب الشديد والأليم يشربون شراباً حاراً قبيحاً ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ ثم إنهم بعد الأكل من تلك الشجرة الخبيثة يشربون شراباً خليطاً قبيحاً، وحاراً. فالشوب هو الخليط، والحميم هو الماء الحار، وذلك للتشنيع عليهم حتى في أكلهم وشربهم، ليحيط العذاب بهم من كل ناحية: من داخلهم، ومن خارجهم، فلا شيء من أجسادهم إلا وهو يتعذب، جزاء لما كان منهم من الكفر والعناد للحق. ثم يخبر تبارك وتعالى بما يكونُ عليه أهل جهنم بعد هذا العذاب من الطعام والشراب ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ فإن مرجعهم بعد أكلهم لشجر الزقوم، وشربهم للحميم، فإنه يتم ردهم إلى الجحيم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بسبب ما استحقوه من ذلك العذاب ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ إنهم وجدوا آباءهم على الكفر من الشرك وعموم الضلال، فتابعوهم على ذلك الضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ فلم يأخذوا بما دعتهم إليه الرسل من الحق المبين، بل أصروا على متابعة الآباء، حتى أسرعوا في الضلال. فأفادت دلالة ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ المبالغة في سرعة المتابعة، والتمسك بالضلال، والصدود عما جاء به المرسلون من الحق. لأن الإهراع هو: الإسراع، مع الحث عليه. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: يهرعون: يستحثون من خلفهم، يُقال: جاء فلان يهرع إلى النار: إذا استحثه البرد إليها[2] فيستحثهم غيرهم على الكفر، فيتابعونهم، وكذلك تشمل أنهم يستحثون أنفسهم على متابعة كفر آبائهم، فيسرعون في التشبث به، إلى درجة عدم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٥/٦٠) والشوكاني، فتح القدير (٤/٣٩٨)

الالتفات إلى الحق، وتجاهله تماماً، في صدود عميق. فكان لهم ذلك الجزاء الذي يناسب صدودهم عن الحق، وجريانهم للباطل.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه قبل هؤلاء المذكورين قد ضل الكثير من الناس، بسبب التقليد غير البصير ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فلقد ضل عن الحق قبل قومك أيها النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الأمم السابقة. مما يفيد أن القليل هم الذين آمنوا واهتدوا. مما يبين أن العمدة على الحق، وإن قل أهله، وليست بالأكثرية. مما يفيد كذلك أن أهل الباطل والكفر أكثر من أهل الإيمان والحق، فليست الكثرة هي دلالة الحق، بل الحق ظاهر في ذاته، ولو كان أتباعه أقل ممن أنكروه وصدوا عنه. وفي هذا تذكير وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بحقائق المضلين من حيث كثرتهم، كي لا يغتر الناس بالكثرة الباطلة الفاسدة.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه أرسل المرسلين لهؤلاء الأولين. يبينون لهم الحق، وجزاء من اتبع الحق، وينذرونهم الكفر والباطل، وأن جزاء من كفر عذاب النار خالدين فيه أبدا. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ فقد أرسلنا لتلك الأمم السابقة، من ينذرهم ويحذرهم من العذاب الأليم لمن كفر ولم يؤمن بما جاءت به الرسل، ولكن كذبت تلك الأمم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فتأمل كيف هي نهاية الأمم التي كذبت المرسلين، فقد نالها العذاب الشديد. فعلى الجاحدين الاعتبار بذلك. فإنها موعظة من رب العالمين للناس أجمعين، بما كشفه لهم من الحقائق، في بيان عظيم الأثر، وكأن الْمُخَاطَب ينظر ببصره وبصيرته إلى مآل الكافرين. لتكون موعظة موجزة بالحقائق لحال من كفر. فنسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وحُسن الخاتمة.

ثم يستثني تبارك وتعالى عباده الصالحين من تلك الحال والمآل للكافرين، وما وجدوه من العذاب المهين، فقال عَزَّ وجل ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوضح ويبين عَزَّ وجل حال عباده المؤمنين بأسلوب الاستثناء ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ إلا الذين أخلصوا العبادة لربهم وحده لا شريك له. بما يفيد تميزهم عن غيرهم من الكفرة، ليبين ما خصهم به من الفوز. إلا عباد الله تعالى الذين أخلصهم ربهم له بالطاعة والامتثال. فإنهم لا يذوقون العذاب الأليم، ويتجاوز الله تعالى عن سيئاتهم. وسماهم بالمخلصين ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ لأنهم أخلصوا العبادة لربهم وحده لا شريك له. فاستثناهم من العذاب. ليبين منزلة الإخلاص، ومكانة التوحيد.

ومن حفاوة الاحتفاء بهم أن نسبهم سبحانه وتعالى إليه من حيث العبودية ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لبيان أهمية ورفعة إخلاص العبودية لله تعالى وفق ما شرع. كما زكاهم بالإخلاص، فسماهم بالمخلصين ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهذا فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى. مما يبين رحمة الله عَزَّ وجل وكرمه، فيكرم عباده المخلصين بأعظم مما فعلوه. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين أجمعين من عباده المخلصين. وهذه المرة الثانية التي تتكرر فيها هذه الآية الكريمة. وقد تكررت في هذه السورة خمس مرات. ليدل على تمجيد الله تعالى لعباده المخلصين، وبيان عنايته بهم. وبما يَظهَرَ به منزلة ومكانة طاعة الله تعالى، وثواب أهلها ومنزلتهم الرفيعة عند ربهم تبارك وتعالى. وقد تم ذكر دقائق من البيان فيما سبق، عند ورودها في المرة الأولى.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين من الرسل، فكان أكثر الناس هم المكذبين، ينتقل السياق الكريم إلى تفصيل ذلك بشواهد لبعض المرسلين، فبدأ ذلك بأول المرسلين: نوح عليه الصلاة والسلام. فأخبر جَلَّ في علاه بشيء من أمر نبيه ورسوله نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ فإن رسول الله نوح عليه السلام قد واجه من قومه العناد، فأراد الله تعالى إظهار ذلك بنداء واستغاثة نوح لربه ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ فلقد نادى نوح ربه بالسؤال والدعاء على قومه، بما كان منهم من المعصية والعناد. وأظهر الله تعالى هذا البيان من النداء بحرف التحقيق، الذي تقدمته لام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ليتبين قدر معاناة نوح عليه الصلاة والسلام من قومه، حتى بلغ به الحال أن دعا ربه عَزَّ وجل بصيغة النداء. حيث لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ومن دقائق السياق في بيان شدة تلك المعاناة، أن ورد طلب نوح من ربه بالنداء ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا ﴾ ولم يقل في هذا الموقف دعانا بل ﴿نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ إذ أن النداء يفيد قوة الطلب والاستغاثة، وقد دعاهم الف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بعظيم استجابته لنداء نوح ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ فأجبنا طلبه ودعاءه بالإجابة التي اتصفت بأعظم ما تكون عليه الإجابة، فنعم المجيب سبحانه وتعالى، ليفيد المبالغة في الاستجابة. مما يفيد

تحذير المعاندين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الكفر والعناد، فقد استجبنا لطلب رسولنا نوح، وكذلك نستجيب لرسولنا محمد عليهما الصلاة والسلام، فانتبهوا، وأطيعوا رسولكم، لئلا يكون حالكم كحال قوم نوح من العذاب. مما يعلم المؤمن أن المغيث من كل كرب هو الله سبحانه وتعالى، فإذا استغاث المؤمن فعليه أن يستغيث بالله عَزَّ وجل، فإنه هو المغيث.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن طريقة إنجائه لرسوله نوح ومن معه من المسلمين، فقد أمره الله تبارك وتعالى بصناعة السفينة، ونجاه ومن معه من المؤمنين، وأهلك الكافرين بالغرق. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فقد نجى الله تعالى رسوله نوحاً عليه السلام وأهله، وهم جميع من معه من المؤمنين. فأهل الرجل عشيرته، وأهل الرسول هم أتباعه. فنجاهم سبحانه وتعالى ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وهو العذاب بالطوفان العظيم، الذي أغرق الله تعالى به الكافرين. وهو ما أشار إليه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى(١) وسُمّيَ بالكرب العظيم، لعظمته، وعظمة أمواجه، حتى كانت كالجبال، وكذلك تشمل دلالة ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: من شدة التكذيب والأذى، الذي وجده نوح عليه السلام من قومه. فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وطاعة ربهم عَزَّ وجل، ويقابلونه بالتكذيب والعناد والسخرية، بل ويتواصون بالإعراض عنه، وهو ما أشار إليه ابن كثير رحمه الله تعالى(٢) ومع كل هذه المدة وهذا الأذى فإنه لم يؤمن معه إلا قليل.

ومن شدة الأمر أن سماه الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْكَرْبِ ﴾ وهو شدة الغم، والْحُزن النفسي الشديد.

وفي هذا الوصف بالكرب ما يدل على شدة المعاناة، بل ألحقه بصفة التضخيم العظيمة ﴿ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهو كرب قد تعاظم أثره على رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام. مما يكشف به عن شدته وهوله، بأن وصل هذا الكرب إلى أقصى غايته في شدته وهيئته وصورته وأثره في النفس والحال من الغم العظيم الذي بلغ منتهاه. كما يبين صبر نوح عليه الصلاة والسلام على تلك المدة الطويلة في دعوته لقومه دون ملل أو كلل. ويفيد كلا الأمرين والوجهين من الدلالة بيان طاعة نوح عليه السلام لربه عَزَّ وجل، وتجلده في شأنه وأمره، وكذلك عون الله تعالى له، وحمايته وتحصينه من أعدائه، كما يبين شدة عذاب الله تعالى لمن استهان بدينه وبالمرسلين، وما

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٩/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٣)

جاؤوا به من الحق. فليحذر الإنسان مما أصاب تلك الأقوام من العذاب، فإن الله تعالى على كل شيء قدير. فهي موعظة عظيمة لكل أحد من الخلق.

ثم يخبر الله تعالى بهلاك جميع الكافرين، ولم يبق بعد نجاته والمؤمنين إلا ذريته ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه. وذلك أن الناس كلهم بعد مهلك نوح إلى اليوم إنما هم ذرية نوح. فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح. والترك والصقالبة والخزر أولاد يافث بن نوح. والسودان أولاد حام بن نوح. وبذلك جاءت الآثار، وقال به العلماء[1]

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه رفع منزلة رسوله نوح، فأبقى له في الدنيا الذكر الجميل ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ فأبقينا عليه الثناء الحسن، والذكر الجميل الذي يذكره الناس به. ومن فوائد دلالة ﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ البقاء والتعاقب في الأمم التي تتوالى بعده إلى يوم القيامة.

ثم يزداد الثناء عليه من الله سبحانه وتعالى ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: الأمن والأمان من الله تعالى على نوح عليه السلام، فهو الأمان من كل سوء، وبما يفيد أيضاً الثناء الحسن على نوح عليه السلام بتحقيق الأمن له، والعناية بشأنه، بل وامتد ذكره وما أَمَّنَهُ الله تعالى به ﴿ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: في الأمم، لإفادة دوام السلام عليه، وهو الثناء والذكر الحسن. مما يفيد أن الله تعالى هو الذي يُبقي الذكر الحسن لمن يشاء من عباده الصالحين، وكل بحسبه، ويبقي الذكر السيء للمسيئين كفرعون وقارون وأبو جهل، وأبو لهب، وكل بحسبه.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى أنه بمثل هذا الذكر الحسن لنوح عليه السلام يجعله كذلك لكل محسن من عباده الصالحين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإنا بمثل ذلك الجزاء الحسن لنوح عليه السلام، واستجابة دعائه، وإنجائه من القوم الظالمين، وإبقاء الذكر له، فإنه يكون كذلك مع كل محسن في القول والعمل، والمحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين، وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم مِثْل هذا الفضل من الله تعالى، فتبقى سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب، كما هي سيرة نوح عليه السلام. مما يبين أن دين الله تعالى يحث على مكارم الأخلاق في كل وجه، وأنه دين الفطرة، وأنه الدين الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر. فهو الدين الذي يحقق التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع، ويخلق بينهم التراحم والتعاطف.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٦٠)

ثم تزداد التزكية لنوح عليه السلام، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإنه كان عبداً ورسولاً متصفاً بالإيمان، مما يفيد قوة الارتباط بين الإحسان والإيمان، وبالتالي بين المحسن والمؤمن. وهو الذي أخلص الطاعة لله تعالى، وبذلك يخرج عنه من كان إحسانه من أجل ثناء الناس، فإنه لم يكن متصفاً بكمال الإيمان. فالإيمان هو الركيزة الأساسية، ثم الإحسان من بعده. ثم يخبر تبارك وتعالى بما فعل مع المكذبين، فقال عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ فأغرقنا الآخرين الذين هم الكفرة من قوم نوح عليه السلام. فلم ينجوا غير أهل السفينة، التي فيها نوح عليه الصلاة والسلام ومن معه.

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وبعد قصة نوح يذكر سبحانه قصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام مع قومه، وبدأ البيان عنها بربط العلاقة الدينية والمنهجية بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ليتأكد ويتبين بذلك أن دين الله تعالى واحد، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: وإن إبراهيم عليه السلام من أشياع نوح عليه السلام، فهو على منهجه وملته، من حيث النبوة والرسالة، ودعوة الناس إلى توحيد الله تعالى وعبادته، وأن لا يشركوا به شيئاً. ووصفه بأنه ﴿ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ لأن شيعة الرجل: هم أنصاره وأعوانه وأتباعه.

ثم يصف الله تبارك وتعالى رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بسلامة القلب وطهارته، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾ واذكر أيها الْمُخَاطَب كلام ربك إذا جاء إبراهيم إلى ربه سبحانه وتعالى وهو بقلب سليم من الشرك، وهو القلب المخلص لربه عَزَّ وجل من الشك والريبة والشرك، والمنكرات، والقائم بشهادة ألا إله إلا الله، قولاً وعملاً. والناصح لله تعالى مع خلقه لصفاء قلبه. ويعلم أن الله تعالى حق، وأنه سبحانه وتعالى يبعث من في القبور، ويحاسبهم ويجازي المؤمنين بالجنة، والكافرين بالنار.

فقوله تعالى ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾ هو وصف لمجامع الخير وصفاء النفس من كل الشوائب. وفي ذلك مزيد من التزكية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه عَزَّ وجل. فقد كان حظه حظاً وافراً عظيماً. مما

يبين منزلة القلب السليم، إذ هو مثار المدح والثناء من الله تعالى. وفي هذا تزكية عظيمة من الله تعالى لرسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك دعوة لتصفية القلب من الرياء والسمعة وعموم الشرك، وتطهيره من منكرات الأخلاق، والسعي لجعله صافياً لله تعالى لا شريك له بالطاعة التامة.

ثم بعد هذا الوصف العظيم والتزكية الجليلة من الله تعالى لرسوله ونبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ينتقل البيان الكريم إلى الإخبار عن حاله في دعوته لقومه ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ واذكر حين قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه آزر وقومه، مُعَلِّمَاً وداعياً لهم إلى الخير. وبدأ بأبيه، وأفرده بالرغم من أنه واحد من قومه، لبيان منزلة الأب، وأن البدء يكون بالأقربين. فوجه لأبيه وقومه سؤال استنكار عن الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، ليتدرج معهم بهذا السؤال إلى الحقائق ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ سؤال واستفهام، يريد أن يصل به إلى الإنكار عليهم، وتصحيح عقولهم وأفهامهم، فهو استفهام وتَعَقُّب لِمَا يعبدون من الأصنام والأوثان، بما يفيد أي شيء تعبدون من دون ربكم الواحد الأحد. ليستثير به عقولهم، ويتدرج به نحو إثبات حقيقة جُرم ما هم عليه من الشرك. وهو استفتاح حكيم، يبين منهجية وطريقة الاستفتاح في الحوار والاستدلال ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي: شيء تعبدون، فهو لا يسأل عن شيء يجهله، ولكن ليستثير به عقولهم، وليتدرج معهم إلى إثبات الحقيقة، وإبطال الباطل في عقولهم أولاً، أي: لإزالة الجهل المركب لديهم من العمل بالباطل، وردهم إلى الحق.

ثم أتبع السؤال الأول بسؤال آخر ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أتريدون معبودات من دون الله سبحانه وتعالى ﴿ أَئِفْكًا ﴾ أي: كذباً وزوراً، بما يفيد أن لا حقيقة لها في حظ العبودية، بل هو سلوك مُفترى، واعتقاد مُخْتَرَع، فهو سؤال استنكار وتقرير بحقيقتها، لأنها ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ ﴾ أي: معبودات من غير الله سبحانه وتعالى، وفي تسميتها أنها من ﴿ دُونَ ٱللَّهِ ﴾ ما يبين انحطاطها، وقصورها، فكيف تتجهون لمن هو من دون الله عَزَّ وجل، وتتركون الله العظيم الجليل. ومن دقائق البيان وُرُد ابتغاءهم للآلهة بدلالة الإرادة ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ والإرادة هي الابتغاء والعزم على الشيء، وهو الأمر يُراد تحصيله بعزيمة واهتمام. مما يبين تفانيهم في عبادة الأصنام، وإرادة الخير منها، أتريدون عبادة هذه الآلهة من الأصنام من دون ربكم عَزَّ وجل؟ فهو سؤال يستثير التأمل في اتجاههم للعاجز وتركهم لله القادر سبحانه وتعالى. فهو سؤال يستثير ويكشف لهم الباطل الذي هم عليه من الشرك الواضح فساده. مما يعطي ويفيد بيان منهجية الحوار والتدرج فيه.

ثم ينقلهم إلى عبادة الواحد الأحد سبحانه وتعالى بطريقة العرض، والاستفهام عن الله سبحانه وتعالى ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فما الذي تظنون وتعتقدون في رب العالمين؟ فما الذي ظننتم بربكم حتى أشركتم معه غيره؟ فما تظنون أن الله تعالى فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ قال قتادة رحمه الله تعالى: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره[١] وقيل المعنى: أي شيء توهمتموه بالله تعالى حتى أشركتم به غيره[٢] فهو سؤال يحمل استثارة الذهن للتفكر عن الأمر الذي حملهم على الشرك، بعبادة الآلهة من دونه الله سبحانه وتعالى. لأنه بهذا السؤال يعيد المشرك للتفكر. ويعيده أيضاً للمآل. فماذا تقولون لربكم إذا لقيتموه، وماذا تعتقدون في معاملة ربكم لكم، وأنتم تشركون؟ كما يحمل التحذير، والتنبيه لهم من غفلتهم، وأن الله تعالى لا يقبل أن يُشرك معه غيره.

ثم انتقل معهم في تدرج إلى العودة بهم إلى معرفة الحق، وبأسلوب غاية في قوة المنهج ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ فتوجه بوجهه إلى السماء، ناظراً نظرة سريعة إلى النجوم. ليفكر عن مخرج له من مشاركتهم عيدهم الذي اعتادوا على إقامته. قال الخليل والمبرد رحمهم الله تعالى: يُقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم[٣] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أراد أن يقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم، ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، وفهموا منه ما هو عليه ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدون ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. أنه نظر في السماء متفكراً فيما يلهيهم به، فقال ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي: ضعيف[٤] فقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ وهو تعريض وتورية منه عليه السلام، وربما يقصد به سُقمُ قلبه من شركهم، وربما لعلة عرضت عليه. وهنا تركه قومه وانصرفوا عنه ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾ أعرضوا عنه وفارقوه ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ أي: انحرفوا عنه مولين ظهورهم له، بما يفيد تأكيد التولي بالانصراف عنه. أي: ذهبوا عنه وتركوه، بحيث لا ينظرون إليه، كناية عن تصديقهم له، وقبولهم لعذره.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤/٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٠١/٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/١٥)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥/٤)

فبعد أن تولوا عنه مدبرين، اتجه إلى أصنامهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فاتجه لأصنامهم، مخاطباً لهم بخطاب من يفهم. وكان وصف ذهابه إليها بدلالة كلمة ﴿ فَرَاغَ ﴾ التي تفيد الميل والاتجاه، فمال واتجه إلى الأصنام ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ ﴾ بسؤال يحمل الاستنكار والاستهزاء والسخرية ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فخاطبها بخطاب من يسمع ويفهم ويعقل، وذلك تحقيراً للمنزلة التي أنزلها العابدون لها، حتى أنهم يقدمون لها الطعام قرباناً، أو يقدمون طعامهم لها ليتبركوا به، أو ليكون لسدنتها، ممن يقوم بخدمتها، وجميع هذه التأويلات ممكنة. فيكلمها على هيئة معاملتهم لها على أنها عاقل: ألا تأكلون من الطعام. لإثبات أنها أصنام لا تفهم.

ثم بعد سؤال الأصنام عن امتناعها عن الأكل، وجه لها السؤال عن علة امتناعها عن الأكل الذي أمامها، ولكنها لم تُجب على سؤاله عليه الصلاة والسلام، فقال لها ﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴾ فهو سؤال يفيد التهكم، لأنه يعلم أنها جمادات لا تنطق حتى تتكلم، ليتدرج في اتخاذ القرار بتحطيمها وفق تسلسل فكري وعقلي، يؤكد به جُرْم عبادتهم لها، وهنا بدأ بتحطيم الأصنام ﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ فمال على الأصنام يضربها بيده اليمين. وفي تعيين اليمين ﴿ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾ باعتبار أنها الأقوى في الضرب من اليد اليسرى. مما يبين شجاعته عليه الصلاة والسلام، وقوة امتعاضه مما عليه قومه من عبادتهم لجمادات، لا تقدم نفعاً، ولا تمنع ضراً.

ولَمَّا علم الذين يعبدون الأصنام بما كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من تحطيم أصنامهم، اتجهوا إليه ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي: اتجهوا إليه ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي: مسرعين، ليروا سبب تحطيمه لأصنامهم التي يعبدونها من دون الله تعالى، فرد عليهم ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ وهو سؤال يقررهم بجسامة وعظيم خطأ عبادتهم لتلك الأصنام ﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ كيف تعبدون أصناماً أنتم الذين قمتم بنحتها من الحجارة؟ سؤال يستثير الفكر والذهن من أن يلتمس العابد خيراً من منحوتات هو من قام بنحتها. فأعادهم بهذا السؤال إلى خطأ وجهل ما كان منهم. وإلى انحطاط فكرهم، فأعادهم إلى الحقيقة الباطلة التي هم عليها، وأن فكرهم مشحون بالجهل، وبالتالي عليهم توحيد ربهم بالعبادة وكمال الطاعة.

وبعد بيان بطلان أصنامهم اتجه بهم عليه الصلاة والسلام إلى ما هم عليه من تركهم الحق، وإقبالهم على الباطل ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فكيف تتركون ربكم الذي خلقكم، وخلق ما عملتم وصنعتم منه أصناماً،

فإن الله تعالى هو الذي خلق الأصل الذي نَحَتُّم منه معبوداً، وتأتي بمعنى: ما تعملونه من الأعمال. لأن الله تعالى هو الذي مَكَّن العباد مما يعملونه من أعمال. وهم اختاروا عمل الباطل. فالذي يُمَكِّن الإنسان بالقدرة هو الله سبحانه وتعالى. قال الطبري رحمه الله تعالى: وفي قوله ﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون قوله ﴿وَمَا ﴾ بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم. والأخر: أن يكون بمعنى: الذي. فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه، أي والذي تعملون منه الأصنام، وهو الخشب، والنحاس، والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم(١) وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه تعالى(٢) وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والتقدير: والله خلقكم وعملكم، وهذا مذهب أهل السنة، أن الأفعال خلق لله عَزَّ وجل، واكتساب للعباد(٣) فكيف تتجهون للمصنوع وتتركون الصانع الخالق سبحانه وتعالى؟ فهو سؤال يعيد العاقل إلى الحق والحقيقة.

فلما قامت عليهم الحجة، وعجزوا عن ردها، ولم يقبلوا بالحق انتقلوا في الرد عليه بالقهر ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴾ فتشاوروا واتفقوا على نوع ما يتخذونه في شأنه عليه الصلاة والسلام، فكلمة ﴿ قَالُواْ ﴾ تدل على الجمع الذي يبين أنه حصل اتفاق بينهم، ولن يكون الاتفاق إلا بعد تداول الأمر، وتداول شأن ما يتخذونه ضد نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا ﴾ أي: ابنوا له حائطاً، لِيُجمَع فيه الحطب ﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴾ ثم يتم رميه في النار التي أوقدوها، حتى يحترق عليه الصلاة والسلام، وتم تسمية النار بالجحيم، لبيان قوتها، بأنها من كثرة الحطب، أصبحت النار بعضها فوق بعض. مما يبين أنه لَمَّا أعجزهم الرد المنطقي عليه فإنهم عمدوا على الذي يقدرون عليه، وهو إضرام النار وحرقه فيها.

ثم يخبر الله تعالى بما كاد لهم بقوته وعزته جَلَّ جله، فقال عَزَّ وجل ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ فأرادوا بإبراهيم الخليل حيلة من الكيد قد دبروها له فيما بينهم، فأخفوا مرادهم بينهم، دون علم إبراهيم بمرادهم، لأن الكيد فيه تخفي بالمكيدة عن الْمُكَاد له. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ فجعلهم ربنا تبارك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٧٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٣٠٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٦٥)

وتعالى ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ بأن جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً على إبراهيم، فكادهم بذلك العز والنصر من الله تعالى لرسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ أي: المغلوبين والمقهورين. بما يفيد تعميم الصغار والذلة والخسارة عليهم. لتستوعب خسارة الدنيا والآخرة، بل وأمعن سبحانه وتعالى في خسارتهم إلى درجة المفاضلة التي تبين أنهم أسفل الناس التي لا تماثلها سفلية وانحطاط، فدلالة ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ تدل على أدنى منزلة ومكانة في درجات الانحطاط. بما يعود عليهم بالحرقة والألم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح. أكلت لحومهم، وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه[1] فخابوا وخسروا، فقد حصل لهم ضد مرادهم في شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وحصل لهم في أنفسهم من العذاب ما خابوا وخسروا به، لتكون آية عظيمة، ورفعة عزيزة لرسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى. وفي هذا عبرة لأهل مكة ممن تسول لهم أنفسهم المكر بالرسول صلى الله عليه وسلم. وهي آية وموعظة لهم، ولكل إنسان.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ
مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ
بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾

ثم بعد أن أضرم قوم إبراهيم عليه النار، ونجاه الله تعالى منها، بأن أحال الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه، عَزَم على ترك موطنه ومغادرته ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ أي عزمت على الهجرة من بلد قومي الذين كذبوا رسالة الله تعالى إليهم، وأتوجه إلى حيث أمرني، وأتمكن من عبادة ربي. فأخرجه الله تعالى من بين أظهرهم من العراق بلاد قومه إلى بلاد الشام الذي بارك الله تعالى فيها. قال قتادة: وكان بأرض العراق،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٠١)

فأنجاه الله إلى الشام[١] فجعل خروجه من أجل عبادة ربه سبحانه وتعالى، ولذلك جاء البيان بأنه ذهاب إلى الله تعالى، لأنه ذهاب في سبيل الله عَزَّ وجل، وأسند تحقيق الهداية إلى ربه جَلَّ في علاه، فقال ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فجعل تحقيق الهداية وتحصيلها من الله سبحانه وتعالى، ولم يكلها إلى نفسه، ليظهر التوحيد في جميع كلامه الذي يمثل اعتقاده عليه الصلاة والسلام، ليعطي مثالاً تطبيقياً في ذلك.

ثم سأل الله تعالى الذرية الصالحة ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ارزقني يا الله بولد من الصالحين، ليستعين به على طاعة الله تعالى، حين ينتقل من بلده العراق إلى بلاد الشام، وعوضاً له عن قومه وعشيرته الذين فارقهم، وحتى ينتفع به في حياته وبعد مماته. ومن دقائق البيان أن جعل الطلب على سبيل الهبة ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فالهبة تكون اصطفاء من عندك يا رب، حيث تنعدم فيها الموانع، فلا يكون لها أثر، فتكون هبة خاصة، تتجاوز الموانع الطبيعية، مما يفيد إيمانه القوي عليه السلام بأن الله تعالى إذا أراد شيئاً يتجاوز به ما أودعه من السنن والأسباب، حيث شاخ وكبر في سنه، وامرأته كبيرة لا تلد. فكان هذا الطلب من أجل غاية سامية ورفيعة. وفي نفس الوقت طلب أن يكون متصفاً بالصلاح، لأنه لا خير في الولد غير الصالح. فالصالح هو المطيع لله تعالى، فيكون صالحاً في نفسه ولغيره، بما امتنع به عن الفساد والمعصية. مما يبين للمسلم أدب الطلب، ونوع الطلب، والهدف النبيل من الطلب، الذي يقوم به الخير وينهدم به الشر، فيطلب الصلاح في الولد عند دعائه. وفي كل أمر وشأن.

ثم يخبر الله تعالى بتحقيقه لمطلب خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فبشره الله سبحانه وتعالى بولده إسماعيل عليه السلام. وخصه بصفة كريمة عظيمة بأنه حليم، فقال تبارك وتعالى ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ لأنه طلب عليه الصلاة والسلام في سؤاله أن يهبه من الصالحين، ولأنه في نفس هذه السورة وردت بشارة بعد هذه البشارة بإسحاق، ومن بعده يعقوب ولد إسحاق، وسيأتي قريباً في نفس هذه السورة إن شاء الله تعالى. عندما جاءت الملائكة في شأن إهلاك قوم لوط عليه السلام. فقوله تعالى ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ هو البشارة بإسمعيل عليه السلام. والبشارة هي الإخبار بما يسر من الخير، وأنه متصف بالحلم، الذي هو: المتأني، الصبور الذي لا يستعجل الأمور قبل أوانها، ويمسك نفسه عند الغضب. وهذا مزيد فضل من الله تعالى على إبراهيم وابنه إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤/٣)

ثم يأتي الابتلاء من الله تعالى لإبراهيم ولابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فلما شَبَّ إسماعيل عليه السلام، وصار يذهب ويجيء مع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، أُمر بذبحه، ابتلاء من الله العزيز الحكيم.

والمقصود بالسعي ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ ﴾ يعني المشي، لتعطي الجملة دلالة عميقة، وهي: أنه بلغ من القدرة أن يكون مساعداً ومعاوناً لأبيه، وظهرت وتجلت منفعته، ومصاحبته له، فيكون عوناً لأبيه، حتى اعتاد عليه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فأصبحت المفارقة له عظيمة الأثر. وفي هذه الأثناء يأتي الابتلاء من الله تعالى ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ أي: أن إبراهيم أخبر ابنه إسماعيل بأنه قدر رأى في منامه أن يذبحه. لأن رؤيا الأنبياء حق، وهو وحي من الله تعالى. وأما في إخباره لابنه بذلك حتى لا يتفاجأ بذلك. بل أسند إليه الرأي ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ليأخذ رأيه في هذا الشأن، فلربما يُظهر منه أمراً لدلالة الذبح، وأيضاً حتى لا يباغته بالذبح، بأن يغتاله، وكذلك ليرى مدى تجاوبه مع رؤية أبيه له، ومدى طاعته واستجابته لربه عَزَّ في علاه. وفيه استشارة الابن، وفيه استشارة من يخصه الأمر. وعدم المباغتة، وقتل الغيلة. وهو ليس من باب التخيير، لأنه لا خيار لهما في أمر الله تعالى، وليعلم ما عند ابنه من الطاعة والامتثال لأمر الله عَزَّ وجل، لأنه ماض في أمر الله تعالى. مما يبين شدة الابتلاء وفي أحلك الظروف، فالقاتل يكون هو الأب للابن المطيع الذي يساعد ويعين أبيه على أموره وأعماله، مع الاعتياد عليه، وشفقته ومحبته له. ليدرك المؤمن أن الابتلاء من الله تعالى حتى للأنبياء، وبأصعب الأمور. فكيف بمن هم أدنى من الأنبياء. وكذلك هو ابتلاء للابن: ماذا يكون منه؟ أيستجيب؟ أو يهرب؟ أو يطيع ويستسلم لأمر الله تعالى وقدره.

وهنا تأتي الإجابة من إسماعيل عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ طلب من أبيه أن يفعل ما أمره الله تعالى به، بل شجع أبيه على فعل القتل، بأسلوب يدل على كمال المطاوعة، حيث بدأ جوابه بالنداء، وبالأبوة ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ﴾ ففي النداء ما يفيد الرجاء والموافقة بأن ينفذ ما أمره اللهُ تعالى به. وخاطبه بالأبوة ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ التي توضح المنزلة والمكانة بينهما، والتي هي أعلى المنازل في العلاقة بينهما. ثم طمأن أبيه بما سيكون منه ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ستجد مني كمال الاستجابة. فاطمأن الأب من أن ابنه راض عن قضاء الله تعالى وما قدره له، وأنه سيقابل ذلك الشأن العظيم بالصبر. وأنه قد ربط صبره بمشيئة الله تعالى، ولم يربطه بقدرته، بل فوض أمر تحقيق الصبر إلى الله تعالى ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فمنه العزيمة والإرادة، ومن الله تعالى العون والتوفيق، وإعانته على الصبر، فعليهما أفضل الصلاة والسلام. مما يعلم المؤمن الصبر على البلاء، وكيف يتعامل مع توجيهات الله تعالى وإرادته، والامتثال لها بكل قوة وامتثال وطاعة واستجابة.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال قيام إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فلما استسلما الأب والابن لأمر الله تعالى بالطاعة والانقياد. وشرع في إنفاذ ما أمره الله تعالى به، فداه الله بذبح عظيم ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ على ما سيأتي بيانه.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: أن الأب والابن قد اتفقا فيما بينهما على كمال الاستسلام لأمر الله تعالى، فقد جمع بيان قوله عَزَّ وجل ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ استسلام الطرفين معاً. وبما يفيد الرضا بقضاء الله تعالى وقدره. فجمعت دلالتها استسلام إبراهيم وابنه إسماعيل لأمر الله تعالى عليهما الصلاة والسلام، مع شمول الاتفاق والرضا بينهما، بما انتفت به المنازعة، أو التردد، أو التفكير. مما يبين كمال الطاعة لله تعالى، التي شملت حتى بر الابن بأبيه، وتصديقه فيما رأى، ولم ينازعه في شيء أبداً.

وهنا بدأ بأول عمل لتنفيذ الذبح ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: صرعه على الأرض، لأن التل هو الصرع والأخذ بالدفع، أي أضجعه على جبينه على الأرض. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والجبين أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما، وقيل كَبَّهُ على وجهه كي لا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه[١] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال ابن قتيبة: أي: صرعه على جبينه، فصار أحد جنبيه على الأرض، وهما جبينان، والجبهة بينهما. وهي ما أصاب الأرض في السجود[٢] مما يفيد قوة الامتثال لله تعالى من إبراهيم عليه السلام الذي شرع في إنفاذ قتل ابنه إسماعيل عليهما السلام، فإنه سيذبح ابنه، وفلذة كبده، والمعين له في أعماله، والمؤنس له في سيره ومشيه وجلوسه، والمرافق له في حله وترحاله. كما يدل ذلك على قوة طاعة الابن الذي امتثل لله تعالى بكامل الامتثال، من غير تردد، مع تقبله لحرارة القتل. وذلك لقوة الإيمان وعون الله تعالى لهما. وقد كان توفيق الله تعالى وهدايته معهما، إذ أعانهما على الطاعة والامتثال. اللهم وفقنا لطاعتك وهدايتك، وأعنا ولا تكلنا لأنفسنا يا رب العلمين.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٤٠٤-٤٠٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٣٠٥)

وهنا تأتي المفاجأة لهما من الله الرحمن الرحيم ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ فقد ناداه ربه تبارك وتعالى، من فوق سبع سماوات. فيخبر الله سبحانه وتعالى بذلك النداء ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ ﴾ فسمع إبراهيم النداء. بما يفيد التكريم والتعظيم لشأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ أي: بقولنا له ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ فسماه باسمه، وأعظِم به من نداء وتكريم ورحمة من الرحمن الرحيم ﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي: قد صَدُقَت رؤياك، واستجبت لِمَا أمرناك به، إذ لم يبق إلا مرور السكين، فجازيناك على تصديقك ووفائك. وأنه بمثل هذا الجزاء نجازي ونكافئ كل محسن.

وجملة ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تتضمن تكفل الله تعالى بجزاء كل محسن، فقد أكد ذلك تبارك وتعالى بضمير العظمة والتفخيم ﴿ إِنَّا ﴾ بما يفيد كمال العناية بمن اتصف بالإحسان حتى كان الإحسان صفة له. ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي: بمثل ذلك الجزاء الذي جازينا به إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام نجازي كل محسن، بأن يصدق مع ربه تبارك وتعالى. وفي هذا تزكية لإبراهيم عليه السلام، مع الوصف الجميل له ولابنه إسماعيل بأنهما من المحسنين، بل جعلهما مثالاً في صفة الإحسان. والجزاء ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فبمثل ذلك الجزاء الحسن لرسولنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، نجازي كل مؤمن اتصف بالإحسان في القول والعمل. والمحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين، وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم الفضل من الله تعالى، وإبقاء سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب، كما هي سيرة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

ثم يُعَظِّمُ الله تبارك وتعالى شأن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وذلك بتعظيم هذا الابتلاء ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ إن هذا الذي ابتلينا به إبراهيم بذبح ابنه لهو الاختبار والتمحيص والبلاء المتصف بالعظمة البينة الواضحة، حيث اختبره الله تعالى في طاعته بذبح ولده، فاستجاب لحكم ربه عَزَّ وجل، وكذلك تحقق الابتلاء في إسماعيل بمطاوعته وامتثاله لأمر الله عَزَّ وجل. وبالتالي فإن فداءه بكبش لهي النعمة البينة التي سَلَّمَ الله تعالى له ابنه من الذبح، وفداه بكبش عظيم ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ أي: استبدلنا المأمور بذبحه ﴿ بِذِبۡحٍ ﴾ بكبش ﴿عَظِيمٖ ﴾ فصفته أنه عظيم القدر. والفداء هو: عطاء شيء بدلاً من شيء. والذِّبح بكسر الذال هو: المذبوح، فيكون المعنى: استبدلنا ذبح ولدك بكبش، وصفة هذا الكبش أنه عظيم ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ فهو عظيم في قدره، إذ كان بدلاً عن ولدك. فهو يفيد التعظيم والتشريف

لهذا البديل، الذي جعله الله تعالى بدلاً عن إسماعيل ولد إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. مما يفيد أن عِوض الله تعالى عظيم. وأن الله سبحانه وتعالى يُعَوِّض من فاته شيء في سبيله عَزَّ وجل، وأنه جَلَّ جلاله قد يحفظ الشيء، ويستبدله للعبد. فلا يفوت شيء على المؤمن المحسن المطيع إلا ويرزقه الله تعالى بخير منه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه رفع منزلة رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فأبقى له في الدنيا الذكر الحسن الجميل ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ فأبقينا عليه الثناء الحسن والذكر الجميل الذي يذكره الناس به. ومن فوائد دلالة ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ البقاء والتعاقب لجميل ذكره في الأمم التي تتوالى بعده إلى يوم القيامة.

ثم يمدح الله تعالى عبده ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالتحية والسلامة، فيقول اللهُ عَزَّ وجل ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: أَمَنَةً من الله تعالى على إبراهيم عليه السلام، فهو الأمان من كل سوء، وبما يفيد أيضاً الثناء الحسن على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وبمثل ذلك الجزاء نجزي ونكافئ كل محسن من عبادنا، فهو جزاء ممتد من الله تعالى لكل محسن من عباده. ولقد تكرر هذا الثواب ست مرات في هذه السورة. وهذا هو الذكر الثالث. وقد سبق بيان دلالاته وفوائده.

ثم يزكي الله تعالى إبراهيم في إيمانه وطاعته وامتثاله لربه جَلَّ في علاه ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإن إبراهيم واحد من عبادنا الذين اتصفوا بالإيمان، إذ تحقق فيه جوامع الإيمان والطاعة والامتثال، وخلا من نواقض الإيمان. فهو أسوة وقدوة لكل مؤمن، فقد كان صاحب إيماناً راسخاً. وهذه تزكية عظيمة المنزلة والقدر من الله تعالى لرسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإنها تزكية من الله تعالى، المطلع على القلوب والأعمال والنوايا قبل خروجها وظهورها. مما يفيد أن الله تعالى كريم ورحيم، وودود. إذ يثني على عباده الصالحين. ومن جميل المدح، وجميل البيان، أن نسبه الله تعالى إليه بلفظ العبودية ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ ثم أضاف الإيمان ﴿ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهذه تزكية له بالإيمان. كما سبق ذلك حرف ﴿ مِنۡ ﴾ ليفيد التبعيض، بأنه واحد من العباد المؤمنين، وسبقها حرف التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الذي التصق به الضمير العائد على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فإن ما سبق من البيان كان متعلقاً بخليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبالبشارة بولده إسماعيل، ثم تلاه الابتلاء، بذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي، وقد فداه الله تعالى بكبش عظيم. وبعد هذا البيان ينتقل السياق إلى بشارة أخرى، مع تسمية الْمُبَشَّر به، بأنه إسحاق عليه السلام، مما يفيد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهو الأكبر من أخيه إسحاق. فقال اللهُ تعالى ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ

ﱡﭐ ﭐ ٱلصَّٰلِحِينَ ﱠ أي: ومن مزيد مظاهر تكريمنا لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أن بشرناه بولد آخر، وأسميناه: إسحاق. وكذلك من مزيد مظاهر التكريم أنَّا جعلناه نبياً ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا ﴾ وكذلك أنه ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وفي هذا تزكية لإسحاق قبل مجيئه، بأنه نبي ومن الصالحين. مما يُظهر علم الله تعالى السابق للشيء قبل أن يكون، وماذا سيكون عليه العبد في حياته قبل أن يكون. وفي هذا مزيد من الإكرام لإبراهيم عليه السلام، لأنه من المؤمنين المحسنين. وفي التسمية لإسحاق ولابنه يعقوب من الله عَزَّ وجل فضل عظيم عليهما من الله تعالى، وفيه بيان لما سيكون قبل أن يكون. مما يبين عظمة الله تعالى وكمال قدرته عَزَّ وجل.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى ما استدل به على أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، بتحليله واستنتاجه في سورة هود، عند قوله تعالى ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ فقال رحمه الله تعالى: ومن ها هنا استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب. فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب، الموعود بوجوده، ووعد الله تعالى حق، لا خلف فيه. فيمتنع أن يُؤمر بذبح هذا، والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال، وأصحه وأبينه، والله أعلم[١] وهذا الاستدلال هو من أقوى المرجحات، من أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح.

ثم يخبر الله تعالى بمزيد من فضله عليهما، فقال تعالى ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ أي: باركنا على إبراهيم وعلى ابنه إسحاق. ووردت البركة هنا عامة، لتشمل بركة النبوة، وبركة النماء من عموم الخير، وكثرته، ومنها كثرة الذرية، والأرزاق والصلاح. ثم فَنَّدَ سبحانه وتعالى الذرية المتلاحقة إلى صنفين ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ فمن ذرية إبراهيم، ومن ذرية إسحاق نوعين في الطاعة لربهم تبارك وتعالى. الأول: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ ﴾ وهو المطيع لله تعالى، والنوع الثاني: ﴿ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ وهو العاصي لربه تبارك وتعالى عصياناً بيناً وظاهراً من قوة وضوحه، فيشمل جميع درجات المعصية، إلى حد الكفر. وهو مما هو قادم من أجيال ذريتهما.

ومن دقائق البيان هو تعميم الظلم ﴿ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ ليشمل جميع أنواع ودرجات الظلم، قليله وكثيره، وصغيره وكبيره، والذي منه الكفر. وبالتالي فإن الظالم لنفسه لا تنفعه نبوة أجداده، وبما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٦٨)

يدل على أن النسب لا ينتفع به من فارق دين الله تعالى. كما أن دلالة ﴿مُبِينٌ﴾ هي وصف للظلم بأنه واضح ظاهر، وأعظم الظلم هو الكفر. أي: أنه مُظهر لعصيانه. وخير مثال لذلك ما كان من قريش الذين هم من ذرية إسماعيل، فكان منهم المؤمن المحسن، ومنهم الكافر الذي ظهر وبان كفره وعداوته للرسول صلى الله عليه وسلم ولدين الله تعالى، وللمؤمنين. وفي هذا التقسيم دفع لمظنة أن تكون جميع سلسلة الذرية من المحسنين المباركين.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

بعد أن ذكر تبارك وتعالى سيرة رسوله وخليله إبراهيم، وقبلها نوح عليهما الصلاة والسلام، ينتقل السياق إلى بيان شيء من سيرة رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فيبتدئ البيان بإظهار الامتنان من الله سبحانه وتعالى على موسى وهارون باصطفائهما للنبوة والرسالة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ لقد تفضلنا على موسى وأخيه هارون بالنبوة والرسالة، وهي أعظم وأشرف المنن، وما تبع ذلك من نجاتهما وقومهما بني إسرائيل من فرعون وقومه، وإغراق عدوهم، وإنزال التوراة، وما شرع لهم من الدين. وقد ذكر الله تعالى الامتنان على سبيل الإجمال دون تفاصيله، وتعداده، ليستوفي جميع المنن التي لا تُحصى مِن كثرتها، بل وأكرمهما وشَرَّفَهُما بأن نسب الامتنان عليهما له عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ وسبقه لام القسم الملتحق بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ لتعظيم هذا الامتنان، وإظهار عظمته، وبما يفيد عظيم التكريم بالاصطفاء لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

ثم ذكر تبارك وتعالى بعد الإجمال شيئاً من التفصيل عن ذلك الامتنان ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فقد أنجى الله تبارك وتعالى موسى وهارون وقومهما الذين آمنوا من بني إسرائيل من عدوهم فرعون وقومه، وسَمَّى اللهُ سبحانه وتعالى ما كانوا فيه ﴿ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ليفيد قوة وشدة ما كان فيه بنو إسرائيل من الذلة والمهانة والاستعباد لهم، وتكليفهم بالأعمال الشاقة. والكرب هو: ما يصيب الإنسان من الهم والغم نتيجة شدة ما هو فيه من البلاء. وهو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه، من الاضطهاد

والاستعباد والإذلال، وقتل ذرياتهم، واستخدام نسائهم في الأعمال والمهن الوضيعة، فكانت نجاتهم من الكرب بأن أهلك الله سبحانه وتعالى فرعون وجنوده في البحر ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ فبسبب معونة الله تعالى وتدبيره تحقق لهم النصر على فرعون وجنوده بما أهلكهم الله تعالى به من الغرق، فتحققت لهم هزيمة عدوهم، وتحقق لهم النصر والظفر بالنَّجَاة.

مما يفيد أنه لولا فضل الله تعالى عليهم لَمَا تحقق لهم النصر ﴿ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ فكانوا بسبب نصرتنا لهم أنهم هم الغالبين على عدوهم فرعون وقومه. مما يبين أنه لولا تمكين الله تعالى لهم، لما كانت النجاة لهم من فرعون وجنوده، ولما تحقق لهم النصر، فكانوا هم الغالبين. مما يبين أن النصر هو من عند الله تعالى، وأنه بقدرته وعزته جَلَّ جلاله يقلب الموازين بين الطرفين بقدرته وحكمته. مما يُوجب سؤال الله تعالى عونه في كل شيء، ولزوم طاعته، والصبر على ما يقدره بحكمته، والتوكل عليه سبحانه وتعالى، فهو العزيز الذي لا غالب له جَلَّ شأنه.

ومن جميل البيان التغاير في تراكيب السياق بين آية الإنجاء، وآية النصر. فآية الإنجاء ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ إذ وردت بإفراد موسى وهارون عليهما السلام ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا ﴾ ثم عطف قومهما عليهما ﴿ وَقَوْمَهُمَا ﴾ وفي آية النصر، وردت بصيغة الجمع معاً ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أي: نصرنا موسى وهارون، وقومهما. فكان للتغاير من حيث السياق جمالاً في البيان، وإظهاراً وإبرازاً لقوة الامتنان على الرسولين موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، بإفرادهما ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا ﴾ وكذلك إظهار قومهما بحرف العطف ﴿ وَقَوْمَهُمَا ﴾ بما يفيد نجاة قومهما بسبب اتباعهما لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. ولما أن النصر متعلق بهزيمة فرعون الذي هو عدو لهم جميعاً ورد الجمع في تحقق النصر ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ وهذا من قوة إبداع كلام العزيز المنان، ودقة المعاني والمقاصد من تراكيب ألفاظ الكلام من الله العزيز الرحمن.

ثم يذكر تبارك وتعالى مزيداً من الامتنان، ويخص بها الرسولين الكريمين: موسى وهارون عليهما السلام، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أي: وأعطيناهما كتابنا التوراة، المتصفة بكمال البيان والوضوح لما فيها من شريعة الله رب العالمين. ويدخل معهما في هذا الامتنان قومهما باعتبار أنهما مرسلان إليهم. ولكن في التخصيص مزية تعيين الإيتاء المباشر لهما، بأن موسى وهارون هما المعنيان بما أتيناهما. وفي ذلك إظهار

وبيان لعظيم الحفاوة والامتنان من الله تعالى بموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. وبالرغم من أن الذي تلقى التوراة هو موسى عليه السلام إلا أن البيان ورد لهما معاً، لإفادة التعاضد بينهما، فهما المعنيان بإبلاغ ما آتاهما الله تعالى من التوراة. وسَمَّى الله تعالى التوراة ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أي: فإن كتابنا التوراة هو كتاب قد اتصف بقوة الوضوح إلى درجة المبالغة في وضوحها، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فالسين والتاء للمبالغة، استبان الشيء إذا ظهر ظهوراً شديداً[١] مما ينفي بذلك العذر عن القيام بما في مضمونها من التوجيه والأحكام وتفاصيل التشريع.

ثم يتدرج الامتنان من الله تعالى على موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بالهداية إلى دينه العظيم ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ووفقناهما للدين الحق في الأقوال والأفعال والتشريع، بالأحكام الموصلة إلى مرضات الله تعالى، وإلى الخير، والطريق المستقيم الذي يبتعد بمن أخذ به عن الضلال والشرور، فإنه دين ربكم الله تعالى مستقيم لا اعوجاج فيه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه رفع منزلة رسوله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، إذ أبقى لهما في الدنيا الذكر الحسن الجميل ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ فأبقينا عليهما الثناء الحسن، والذكر الجميل الذي يذكرهما الناس به. ومن فوائد دلالة ﴿ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ البقاء والتعاقب في الأمم التي تتوالى بعدهما إلى يوم القيامة.

ثم يزداد الثناء عليهما من الله سبحانه وتعالى ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي: الأمن والأمان من الله تعالى على موسى وهارون عليهما السلام، فهو أمان من كل سوء، وبما يفيد أيضاً الثناء الحسن عليهما في الأمم، لإفادة دوام السلام عليهما، وهو الأمن والثناء والذكر الحسن. مما يبين أن الله تعالى هو الذي يُبقي الذكر الحسن لمن يشاء من عباده الصالحين، وكل بحسبه، ويبقي الذكر السيء للمسيئين كفرعون وقارون وأبو جهل، وأبو لهب، وكل بحسب ما اكتسب.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأنه بمثل هذا الذكر الحسن لموسى وهارون عليهما السلام نجعله كذلك لكل محسن من العباد الصالحين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإنا بمثل ذلك الجزاء الحسن لموسى وهارون عليهما السلام، من إنجائهما من القوم الظالمين، وإبقاء الذكر لهما، فإنه يكون كذلك مع كل من كان محسناً في القول والعمل، والمحسن هو الذي ترسخ الإحسان فيه، حتى صار صفة له. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين، وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم مِثْل هذا الفضل

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٤٣٥)

من الله تعالى، فتبقى سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب، كما هي سيرة موسى وهارون وبقية الأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين. مما يبين أن دين الله تعالى هو دين الحق، بما فيه من التشريع الحكيم، والحث على مكارم الأخلاق في كل وجه، وأنه دين الفطرة، وأنه الدين الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر. فهو الدين الذي يحقق التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع، ويخلق بينهم التراحم والتعاطف.

ثم يختم الله تعالى شأن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بتزكيته لهما في إيمانهما ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن موسى وهارون من عبادنا الذين اتصفوا بالإيمان والطاعة لربهم تبارك وتعالى، إذ تحقق فيهما جوامع الإيمان والطاعة والامتثال، ومطهران من نواقض الإيمان. فهما أسوة وقدوة لغيرهما، فقد كانا صاحبا إيمان راسخ وطاعة واستجابة لله رب العالمين. وهذه تزكية عظيمة المنزلة والقدر، فإنها من الله تعالى، الْمُطَّلِع على القلوب والأعمال والنوايا. مما يفيد أن الله تعالى كريم ورحيم، وودود. إذ يثني على عباده الصالحين.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

وبعد بيان شأن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ينتقل السياق إلى شأن نبي الله إلياس عليه السلام، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وإن نبينا إلياس لواحد من الرسل التي أرسلناها للأمم، مما يدل على كثرة المرسلين من الله تعالى في الأمم السابقة، وأن إلياس الذي نذكره هو واحد منهم، عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما قاله إلياس عليه السلام لقومه من بني إسرائيل ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فواجه قومه بسؤال استنكار، وتحذير لهم مما هم فيه من التمرد والعصيان ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ألا تخافون عذاب ربكم؟ استحثاث لهم على طاعة الله، وتحذير لهم من العذاب، ودعوة لهم بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب ربهم وقاية، وذلك بالطاعة الواجبة، والامتثال لشريعته عَزَّ وجل. ثم انتقل بهم من وجوب التقوى إلى تفاصيل مفردات الإنكار، من عبادتهم للصنم الذي اتخذوه معبوداً لهم، وذلك بسؤال إضافي، يستنكر منهم هذا الصنيع من عبادتهم لصنم كانوا يعبدونه ويتوجهون إليه من دون الله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أيكون منكم عُبَّاد صنم سميتموه بأنفسكم ﴿بَعْلًا﴾ فتتوجهون له بالعبادة ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: وتتركون عبادة ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أحسن من خلق، وأحسن من يُقَالُ له خالق، فتعبدون صنماً لا يخلق، وتتركون الذي اتصف بأكمل الصفات، حتى فيما خلق من الخلق. فلفت انتباههم إلى خَلْقِهم وخِلْقَتِهم وجميع ما خلق تبارك وتعالى مما يرون ويشاهدون. وفي نفس الوقت أظهر لهم التأمل في بشاعة ما كانوا يعبدون، مع كمال عجزه، كما أن في ذلك السؤال دفع لهم منه عليه السلام للتفكر والتدبر، ليعرفوا قصور عقولهم، وتفاهة ما يعبدون من دون الله عَزَّ وجل. وقد أفادت جملة ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الوصول بالوصف إلى غايته من المدح والثناء على الله تعالى فيما خلق من الخلق. فقد أبدع تبارك وتعالى في حُسن وجمال ما خلق عَزَّ وجل، فتبارك الله أحسن الخالقين. والتي أفادت كمال المبالغة في المدح والثناء على الله تبارك وتعالى.

وبعد أن أبطل رسول الله تعالى إلياس عليه الصلاة والسلام منهجهم وعبادتهم للصنم، واستنكاره لهم على ترك عباد الله تعالى أحسن الخالقين ينتقل بهم إلى ما يجب عليهم ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإن الذي يجب أن توحدوه وتفردوه بالعبادة هو ربكم، ورب من سبقكم من آبائكم السابقين لكم. فردهم عليه السلام بالتأكيد اليقيني إلى الحقيقة، من أن الله تعالى هو ربكم، وزيادة على ذلك هو رب من سبقكم من العالمين، لإفادة التأكيد أنه هو ربكم ورب من كان قبلكم من الآباء وغيرهم. فنقلهم رسول الله إلياس عليه الصلاة والسلام إلى دلالة الربوبية، وأنه عَزَّ وجل هو المتصرف في كل شيء، فهو الذي تَوَفَّى من كان قبلكم، فأفناهم فأصبحوا بالنسبة لكم هم ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: السابقين، فإنكم ستكونون مثلهم لغيركم في عداد السابقين. ففيه تذكير بالفناء لمن سبق، ليدلهم بذلك على فنائهم، وليدلهم على أن الذي خلقكم سيفنيكم، كما أفنى من كانوا قبلكم في هذه الدنيا، فإن الله تعالى هو ربكم، كما هو رب من كان قبلكم، ورب من يأتي بعدكم. فقرر لهم الحق بالحقيقة التي يعرفونها ولا ينكرونها من الفناء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بعدم تجاوبهم، وعدم قبول نُصح رسول الله إلياس عليه الصلاة والسلام ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: أن قومه كذبوه فلم يطيعوه، وبالتالي حق عليهم ما يستحقون من العذاب ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فبسبب تكذيبهم فإنهم مُحضرون إلى العذاب يوم الحساب. ثم يستثني تبارك وتعالى المطيعين لربهم جَلَّ جلاله ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله تعالى بطاعته، فأخلصوا العبادة لربهم وحده لا شريك له، فإنهم غير محضرون يوم الحساب للعذاب، بما يفيد أنهم في أمن وأمان من ربهم تبارك وتعالى. وهذه المرة الثالثة التي يتكرر فيها قوله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه رفع منزلة رسوله إلياس، فأبقى له في الدنيا الذكر الجميل ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ فأبقينا عليه الثناء الحسن، والذكر الجميل الذي يذكره الناس به. ومن فوائد دلالة ﴿ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ البقاء والتعاقب لذكره الحسن في الأمم التي تتوالى بعده إلى يوم القيامة. ثم يزداد الثناء من الله تعالى على رسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، وعلى من معه من المؤمنين، فقال تعالى ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ أي: الأمن والأمان مِن الله تعالى على إلياس عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فهو في أمان من كل سوء، وبما يفيد أيضاً الثناء الحسن عليه في الأمم، لإفادة دوام السلام عليه، وهو الثناء والذكر الحسن.

وهذا مما يخبر العباد بأن الله تعالى هو الذي يُبقي الذكر الحسن لمن يشاء من عباده الصالحين، وكل بحسبه، ويبقي الذكر السيء للمسيئين كفرعون وقارون وأبو جهل، وأبو لهب، وغيرهم، وكل بحسب ما اكتسب. ومن الأقوال في معنى ﴿ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ أنه جمع لهذا النبي أمته المؤمنين به، فحرف ﴿ إِلۡ ﴾ يفيد مَن يُنسب إليه من أتباعه المؤمنين. لأن كل شيء يُجمع لِمَا يُنسب إليه. وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن من الأقوال: أنه جمع لهذا النبي أمته المؤمنين. وكذلك يُجمع ما يُنسب إلى الشيء، فتقول: رأيت المهالبة، تريد بني المهلب[1] أي: اتباعه المؤمنين الذين آمنوا وأطاعوا.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأنه بمثل هذا الذكر الحسن لرسولنا إلياس عليه الصلاة والسلام نجعله كذلك لكل محسن من العباد الصالحين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فإنا بمثل ذلك الجزاء الحسن لنبينا ورسولنا إلياس عليه السلام، فإنه يكون كذلك مع كل من كان محسناً في القول والعمل، والمحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له. وفي هذا حث للمؤمنين بأن يجعلوا من أنفسهم محسنين وراسخين في الإحسان بأقوالهم وأفعالهم، ليكون لهم مِثْل هذا الفضل من الله تعالى، فتبقى سيرتهم مقترنة بالمدح والثناء الطيب، كما هي سيرة إلياس، وبقية الأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين. مما يبين أن دين الله تعالى هو دين الحق، بما فيه من التشريع الحكيم، والحث على مكارم الأخلاق في كل وجه، وأنه دين الفطرة، وأنه الدين الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر. فهو الدين الذي يحقق التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع، ويخلق بينهم التراحم والتعاطف.

ثم يختم الله تعالى شأن رسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بتزكيته في إيمانه ولزوم طاعته لربه جَلَّ شأنه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإن إلياس من عبادنا الذين اتصفوا بالإيمان والطاعة والانقياد لربه تبارك وتعالى، إذ تحقق فيه جوامع الايمان، وانتفى عنه نواقض الإيمان. فإنه أسوة وقدوة لغيره،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٣٠٨)

فقد كان صاحب إيمان راسخ. وهذه تزكية عظيمة المنزلة والقدر، إذ أنها من الله سبحانه وتعالى، المطلع على القلوب والأعمال والنوايا. مما يفيد أن الله تعالى كريم ورحيم، وودود. إذ يثني على عباده الصالحين بهذا الثناء والتمجيد.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وبعد بيان شأن إلياس عليه الصلاة والسلام ينتقل السياق بعد ذلك إلى شأن نبي الله لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وقد بعثه الله تعالى إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم. وكانوا يسكنون سدوم التي أهلكهم الله تعالى فيها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال بيت المقدس[١] فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وإن نبينا لوط عليه الصلاة والسلام لواحد من الرسل التي أرسلناها لأقوامهم، مما يدل على كثرة المرسلين من الله تعالى في الأمم السابقة، وأن لوطاً الذي نذكره هو واحد منهم عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

ثم يخبر الله تعالى عن إنجائه لنبيه لوط عليه الصلاة والسلام من العذاب الذي أنزله الله تعالى على قومه المكذبين، فقال تعالى ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ فاذكروا عندما أنجينا رسولنا لوطاً عليه السلام وأهل بيته، ومن تابعه على دينه. فأنجيناهم أجمعين إلا امرأة لوط كانت من الهالكين ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فأنجينا لوطاً وأهل بيته غير زوجته فقد كانت مع القوم الهالكين، وهنا لم يذكرها سبحانه وتعالى بصفة الزوجة، بل ذكرها سبحانه وتعالى بصفة حالها التي عليها ﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ امتهاناً لها، ودلالة على أنها في عداد المنفصلين عن لوط مآلاً وخاتمة ومكاناً، لأن مصيرها ﴿ فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ وهم الباقين في العذاب. فأضافها للغابرين لأنها لم تؤمن مع نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام، واختارت دين قومها، مما يبين أن ليس للإنسان إلى ما عمل، فلا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٥٧)

ينفعه أحد بالنسب أو القرابة، ما لم يكن من المؤمنين الطائعين لله تعالى. ثم يخبر الله تعالى عن عذابه للقوم الغابرين، ونكايته المخزية الفظيعة بهم ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ فأهلكنا الذين كفروا بعد أن نجينا المؤمنين، إذ أمطر الله تعالى عليهم الحجارة، فأهلكتهم أجمعين.

ثم تأتي الموعظة من الله تعالى لأهل مكة ومن حولها ممن يمرون بديار قوم لوط، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ فإنكم يا أهل مكة لتمرون في أسفاركم على مساكن قوم لوط، وآثارهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: وقت الصبح، وكذلك تمرون بهم ليلاً ﴿ وَبِٱلَّيْلِ ﴾ بما يفيد كثرة التردد، وتعاقب أسفارهم إلى بلاد الشام، ومرورهم صباحاً ومساء على مساكن قوم لوط التي وقع عليها العذاب، وترون آثار ما أصابهم من الهلاك ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تستعملون عقولكم في دلالة ما أصاب قوم لوط. فتتدبرون، وتتفكرون، فإن في ذلك الذي تم بيانه لكم بالحقيقة والبرهان لآيات عظيمة على قدرته سبحانه وتعالى. فقد أظهر لكم ما تتعظون به. بأن أهلك بقدرته من كانوا في الدنيا يتمتعون، وذلك لكفرهم وبغيهم. فإن في هذا السؤال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قوة من الاستثارة والتنبيه، بعد إقامة الحجة بما يأتون ويمرون عليه صباحاً ومساء من آثار قوم لوط، فيستثير بذلك ما كانوا عنه غافلين ولاهين. وكذلك هو سؤال يستنكر به على كل من حاد عقله عن الطريق، مع وجود الأدلة والبراهين الواعظة. وهو سؤال يُثبت للعباد قوة قدرة الله تعالى على من تمرد على الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو سؤال يستنهض العقل ليتدبر ويتفكر. مما يفيد تعليمياً عرض الدليل أولاً، ثم استثارة التأمل والتدبر في مكنونه ثانياً. ليجعل المتعلم يُمعِن الفكر بروية وهدوء.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى شأن يونس عليه السلام، وهو: ذو النون، وهو ابن متى، بعثه الله تعالى إلى أهل نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وكذلك إن نبينا يونس لواحد من الرسل التي أرسلناها لأقوامهم، مما يدل على كثرة المرسلين من الله تعالى في الأمم، وأن يونس الذي نذكره هو واحد منهم عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

واذكر حال يونس إذ خرج من بين أظهر قومه مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ حين ﴿ أَبَقَ ﴾ أي: تباعد، بالهروب والخروج عن قومه، غاضباً عليهم، وركب سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة. قال المبرد رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ أَبَقَ ﴾ أي: تباعد، وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: فَزَع. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هرب. وقال الزجاج عن ﴿ ٱلْفُلْكِ ﴾ السفينة. وعن ﴿ ٱلْمَشْحُونِ ﴾

المملوء[١] أي: المملوء، والممتلئة بحمولتها، فالمشحون هو الذي قد شُحِن، فَجُعِل فيه حاجات القوم، ليركبه أهله، فوضعوا فيه ما يريدون.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بما كان من حاله، وحال أهل السفينة ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ فلما تلاطمت الأمواج، وخاف الناس من غرق السفينة التي امتلأت بالناس، أوجدوا حلاً فيما بينهم، بأن يخففوا من حمولتها، فيتم رمي من تقع عليه القرعة في البحر ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي: قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ فكان نصيبه أنه من المقذوفين في البحر، فكان مغلوباً بوقوع القرعة عليه. إذ وقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام. وهنا ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي: ابتلعه الحوت ابتلاعاً ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي: في وضع وفعل يلام عليه. أي: مستحق للوم. مما يدل على أن الله تعالى دبر هذا الأمر للسفينة، ولهذا الرأي من القرعة، والتخفيف من حمولتها، ثم قَدَّرَ بقدرته جَلَّ جلاله أن يكون الشأن والاختيار يقع على عبده ونبيه يونس عليه السلام، ودبر الحوت الكبير الضخم بأن يأتي عند السفينة في اللحظة التي وقع فيها في البحر، ليلتهمه التهاماً، دون أن يمسه شيء من أنياب الحوت. ليدرك الإنسان أن الله تعالى إذا أراد شيئاً دبره بأدق التدبير، وبالطريقة والهيئة التي يريدها الله تعالى أن تكون عليه، بلا زيادة ولا نقص. وليدرك العبد أن الله تعالى فَعَّال لما يريد. فينتبه من المعصية، ويعتصم بالله تعالى، ويتوكل عليه، فهو المنجي، وهو المانح والمعطي. وهو الذي يعاقب بما يراه من العقاب، ليحذر المؤمن وجميع العباد من معصية الله تعالى.

ومع هذا كانت رحمة الله تعالى تُحيط بنبيه يونس عليه السلام، كما أن يونس عليه الصلاة والسلام أدرك ما كان منه، فالتجأ إلى الله تعالى بالتسبيح ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ فلو لم يكن يونس من الذاكرين لله تعالى لبقي في العقاب داخل بطن الحوت إلى يوم البعث ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ لبقي في بطن هذا الحوت محبوساً إلى يوم القيامة، حين يبعث الله تعالى الخلائق. ولكن برحمته عَزَّ وجل أنقذه من بطن الحوت بهدايته إلى كثرة التسبيح. مما يبين فضل التسبيح. وقال بعض أهل التفسير أن المقصود بها الصلاة. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: كان من المصلين لله تعالى قبل البلاء الذي ابتلي به، بالحبس في بطن الحوت. وقال بذلك ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير[٢] وقيل كان يتضرع إلى الله تعالى بما ورد في سورة الأنبياء بأن يونس عليه السلام نادى مستغيثاً بربه ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: لما قال في بطن الحوت

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٩/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٧/١٩-٦٣٠)

(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) قذفه الحوت. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والأظهر أنه تسبيح اللسان[١] ولا يمنع الجمع بين ذلك، فيكون قبل ذلك الابتلاء كان من المصلين، وأثناء الابتلاء كان من المسبحين كما ورد في سورة الأنبياء، لقوة دلالة الآية في سورة الأنبياء بأنه التسبيح باللسان كما ورد.

وبالتالي فإنه لما صار في ظلمة جوف بطن الحوت، أخذ يتضرع إلى الله تعالى بذلك التسبيح العظيم. وهنا امتن الله سبحانه وتعالى عليه، بأن أخرجه من بطن الحوت إلى الأرض ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ والنبذ هو الطرح والإلقاء ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: في الأرض القاحلة التي لا شجر فيها، بحيث لا يتوارى فيها بشجر ولا غيره. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض، بسبب وجوده في بطن الحوت. أي: أن الله تعالى أمر الحوت أن يقذف يونس عليه السلام في البر، خارج البحر، وذلك من كمال لطفه تبارك وتعالى.

وهنا يمتن الله تعالى عليه بمزيد من الفضل، فقال تعالى مخبراً بذلك الامتنان ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ فأنبتنا بجانبه شجرة، وهذه الشجرة ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهي شجرة الدباء. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأنبتنا على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق، وكل شجرة لا تقوم على ساق كالدباء والبطيخ والحنظل، ونحو ذلك، فهي عند العرب: يقطين[٢] ونقل ابن كثير رحمه اتعالى عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم، قالوا كلهم: اليقطين، وهو القرع. وذكر بعضهم أن في القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره[٣] ولعله أيضاً ليلتف ويلف به على جسمه منه، فيطوي على جسده بشيء من اليقطين، لمعالجة أثر ما أصابه من بقائه في بطن الحوت. مما يبين لطف الله تعالى بعبده ورسوله يونس عليه الصلاة والسلام. كما يبين ذلك أثر الصلاة والتسبيح، وما يصرف الله تعالى بهما من العقاب المستحق، وما يكون وما يجري عليه من اللطف الذي قد لا يشعر به الإنسان، لأن الله تعالى لم يُوقعه فيه، لطفاً به لكثرة صلاته وتسبيحه.

ثم يخبر الله تعالى بمزيد امتنانه على نبيه ورسوله يونس عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ثم أرسلنا يونس ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عن

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٨٣-٨٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٦٣٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٤)

المائة ألف. وتعني ﴿أَوْ﴾ كما ذكر القرطبي عن الفراء رحمهم الله تعالى أنها بمعنى: بل[١] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنها بمعنى: بل. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والفراء رحمه الله تعالى[٢] فيكون المعنى مائة ألف بل يزيدون عن ذلك، لإفادة التكثير، وإلا فإن الله تعالى يعلم كمال عددهم ذكوراً وإناثاً، وصغاراً وكبارا.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بحال أولئك الذين بعثهم الله تعالى إليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فقد استجابوا لدعوة يونس بفضل الله تعالى، فآمنوا جميعاً ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: مكناهم من الحياة إلى مقتضى أعمارهم ومنتهى آجالهم التي كتبها الله تعالى لهم. فأفادت ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ﴾ أن الله تعالى هو الذي مكنهم من الحياة، والبقاء، بأن يتمتعوا في الدنيا إلى حين مُنتهى آجال كل واحد منهم. والتمتع هو الانتفاع بالموجود مما ينتفع ويتمتع به من الموجودات. وأفادت دلالة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ المدة من الزمن التي حددها الله تبارك وتعالى، ووردت نكره ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ لتستوعب اختلاف وتباين الآجال بينهم. وهذا من دقائق البيان الكريم.

ودلالة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تستوقف العقل، من أن الدنيا متاع ولكنه إلى حين. وأن الدنيا عمل، ولكنه إلى حين. وأن يلتزم بتكاليف الشريعة إلى حين، وأن عدوه الشيطان معه، ولكنه إلى حين، فليتخذه عدواً إلى حين، وليصبر إلى حين. وليصبر على طاعة الله تعالى إلى حين. فليكن قوله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قوة وأملاً وطريقاً يتجاوز به كلّ عائقٍ لطريق الجنة.

فإذا واجهت المؤمن مغريات الدنيا وفتنتها قال بقوله تعالى ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن تكاسل عن طاعة أقام نفسه بقوله عَزَّ وجل عن قوم يونس ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن رأى مغروراً بالدنيا وعظه بقوله تعالى عن قوم يونس ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ لتكون قاعدة عظيمة لمسلك الإنسان وفكره وتصرفاته. وقاعدة ضابطة له في كل شأن وأمر. فليتخذها المؤمن قاعدة واعظة له في حياته، ليصل بها إلى آخرته.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٨٣-٨٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٣١٢)

ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

بعد أن طافت الآيات الكريمة بذكر شأن بعض المرسلين وأقوامهم ينتقل السياق الكريم إلى معالجة اعتقاد المشركين الفاسد، بما ينسبونه لله تعالى من البنات، فخاطب تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ اسأل يا أيها الرسول هؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله تعالى. فهل بهذا الزّعم والادعاء والبهتان منهم في حق ربهم سبحانه وتعالى، يعني أنهم يَخُصُّون أنفسهم بالبنين؟ فيجعلون لربهم جَلَّ شأنه البنات، ويجعلون لأنفسهم البنين؟ سؤال يحمل التكذيب لهم، والتوبيخ والتأنيب، ويُعَرّي فكرهم وتكبرهم واستعلاءهم. وقد بدأ البيان الكريم بالأمر بالاستفتاء على سبيل تقريرهم بالحق. وورد السؤال لهم بكلمة الاستفتاء ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ التي تحمل دلالة طلب الجواب عما يُشكل. للدلالة على أن السؤال هو معالجة لما زعموه من الافتراء الباطل. وتجهيل فهمهم إن كانوا يفهمون، فهو من باب التجهيل لهم، بأسلوب التهكم. ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ أيكون لربكم الذي خلقكم البنات، ولكم أنتم أيها المخلوقين البنين. أيعقل هذا؟ بأن تنسبون لأنفسكم ما تحبون، وتنسبون لربكم ما لا تحبون. ففي ذلك استثارة للعقل عن مساره الخاطئ، بل المتعاظم في التمرد.

ثم ينتقل بهم البيان الكريم إلى سؤال توبيخ وتجهيل لما حكموا به، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ فهل شهدوا خلق الملائكة عندما خلقهم الله سبحانه وتعالى، فشهدوا بأعينهم أنهم إناث؟ فهل يشهدون بذلك؟ وحتماً ستكون الإجابة هي: لا. إذاً كيف حكمتم على أن الملائكة إناثاً؟ إذاً أنتم تكذبون، وتفترون الباطل. ثم يؤكد تبارك وتعالى إفكهم بمزيد من الكشف عن افترائهم ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ بل إن من تماديهم وقوة إفكهم أنهم يزعمون ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي: جاء منه سبحانه وتعالى الولد، فيقولون: أن الملائكة من مواليد الله سبحانه وتعالى، فتنزه ربنا عما يقولون، وهو عَزَّ وجل لم يلد ولم يولد، واحد أحد، فرد صمد. ليقرر سبحانه وتعالى كذبهم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ إنهم كذبوا بما زعموا من الباطل، بأن الله تعالى يأتي منه الولد، وأن الملائكة من مواليد لله سبحانه وتعالى، وأنهم من فئة البنات، وليسوا من فئة الذكور. فكذبهم الله تعالى بقوله عَزَّ وجل

﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي: تحقق منهم الكذب والافتراء فيما نسبوه إلى الله تعالى من أن الملائكة إناثاً، وأنهم بنات الله، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ويتجدد الاستنكار من الله تعالى عليهم بسؤال استنكار ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ فقل لهم على سبيل الاستفهام الاستنكاري: هل اصطفى الله تعالى البنات على البنين؟ ليضاعف عليهم التجهيل، ويرتقي به إلى العلة والسبب، وهو لماذا اصطفى البنات على البنين؟ فهل البنين أفضل من الذكور كما تحكمون؟ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والكلام ارتقاء في التجهيل، أي: لو سلمنا أن الله تعالى اتخذ ولداً، فلماذا اصطفى البنات دون الذكور؟ أي: اختار لذاته البنات دون البنين، والبنون أفضل عندكم؟[1] فهو استنكار لمقاييسهم، وما تهواه أنفسهم من الباطل.

ثم يتوجه لهم السؤال عن منهج حكمهم، لإفادة عجز الإجابة منهم على ما سبق من الأسئلة، فباشرهم بالاستخفاف بتفكيرهم، وما افتروه من الباطل، فقال تعالى ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فهو استفهام تعجب بعد الاستفهام الإنكاري. فهو تعجب من حكمهم الذي لا دليل لهم عليه. فبأي شيء تحكمون ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ما الذي ثبت لكم حتى تحكمون بهذا الحكم؟ سؤال تعجيز ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ ما الذي دهاكم؟ ما الذي دفعكم لهذا الحكم من غير دليل؟ بل منافي لعظمة ربكم سبحانه وتعالى. ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ كيف تحكمون من غير علم، ولا دليل عندكم؟ بما يفيد ثبوت الكذب عليكم، والجرأة منكم على خالقكم سبحانه وتعالى.

وجملة ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تفيد الاستفهام من أجل التهويل، واستنطاقهم عن عمق جهلهم بما حكموا. أي: فكيف يكون هذا الحكم من غير علم؟ فهو استفهام يقود إلى التوقف والتأمل، والمراجعة، مع التعجب. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية مآل جرم كلامهم، والتفكر في النتيجة. فجملة ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تستثير الذهن، ليتصور المخاطبون ما يحيط ببهتانهم وجراءتهم على الله تعالى، بالوصف الفاسد من القول والبهتان، وقلب الحقائق. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال، فإنها نعمة عظيمة، وعلى العاقل أن يكون ذا بصيرة. بل إن هذا المنهج الرباني في كشف الحقائق، وإبطال الباطل منهج قد ارتقى بعقول المسلمين في حججهم ومخاطباتهم لغيرهم. فإنه مليء بالتأمل والتفكر ونظر البصر والبصيرة، فإنها نعمة عظيمة، تقود إلى العلم بالدليل والبرهان، والتحليل والاستنتاج، حتى يتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٤٤٩)

والصواب، فإن القرآن العظيم وهدي خير المرسلين صلى الله عليه وسلم وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه. وكذلك منهج لإبطال الباطل، وإقامة الحجة.

ثم ينتقل بهم السياق القرآني الكريم إلى الاعتبار ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ سؤال يحثهم على أن يعتبروا بالتفكر، فتتذكرون بطلان قولكم المبني على جهل فكركم، وانحطاط منهجكم في الحكم. ألا تتعظون بالتذكر لما كان منكم من الزلل الكبير، بالافتراء والبهتان العظيم؟ ثم ينقلهم مرة أخرى إلى مصدر القوة من الحجة إن كانوا يملكونها ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أو تقولون بأن عندكم حجة ظاهرة واضحة بينة على ما تقولون من الافتراء على ربكم جَلَّ جلاله؟ وهو تعجيز لهم من أن يأتوا بحجة على افترائهم بأن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله تعالى. وبالتالي يكون توبيخ يتكرر في حقهم.

ثم تزداد الحجة عليهم، والتعجيز لهم ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فعليكم أن تثبتوا أقوالكم ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ ﴾ فأحضروا كتابكم الذي فيه حجتكم. أي: بحجة من كتاب من عند الله تعالى، ينطق لكم بالحق والحجة على ما تزعمون. بما يفيد: فإن لم تكن لديكم القدرة على ذلك، فإنكم إذاً لكاذبون. لأن الحقائق إنما تثبت بالدليل والبرهان، وأنتم عاجزون أن تثبتوا قولكم بحجة من الله تعالى على ما تزعمون.

ثم يذكر سبحانه وتعالى زعماً باطلاً مما زعم به المشركون، وهو ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبوبكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد. ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي: أن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك، وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم[1] فجعل المشركون بين الله تعالى والملائكة قرابة ونسباً، فزعموا أن الملائكة بنات الله تعالى، وأن أمهاتهم سروات الجن ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ وقد علمت الجنة: أي: الملائكة أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار، ويعذبون فيها. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أكثر أهل التفسير أن ﴿ الْجِنَّةُ ﴾ هاهنا الملائكة[2] يعني أن قائل هذا القول ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ هم الملائكة. أي: أن الملائكة قالت: بأن هؤلاء

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥/٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٨/١٥)

الكفار الذين قالوا هذا القول يُحضرُون بجلبهم للعقاب بالنار، ويعذبون فيها. ومعنى سروات الجن: أي: أنهن من فريق نساء من الجن، من أشراف الجن[١] أي من علية جنس الجن.

ومن تمام فوائد هذا البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه خرج في معنى ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾ قولان: أحدهما: أنهم الملائكة. والثاني: الجن. فعلى القول الأول بأنهم الملائكة، يكون معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: علمت الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النار. وعلى القول الثاني بأنهم الجن، يكون معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: إن الجن أنفسها علمت أنهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ الحساب[٢] والمتأمل يجد أن كلا الدلالتين صحيحة في الدلالة والمعنى: فالجن محضرون للعذاب، والمشركون محضرون كذلك للعذاب، فاستوفت الحقائق التي سيكون عليها المشركون والجن، من إحضارهم عذاب النار. ومن مزيد الفوائد أن الذي استدعى هذا الخلاف هو معنى ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾ فعلى القول بأن ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾ هم الملائكة يكون المحضرون هم المشركون. على القول بأن ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾ هم الجن، يكون المحضرون إلى النار هم الجن نفسها، بأنها علمت أنهم محضرون للحساب والجزاء.

ثم ينزه الله تبارك وتعالى نفسه عَزَّ وجل عن تلك الأقوال الباطلة الفاسدة، فقال جَلَّ جلاله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزه الله جَلَّ في علاه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يصفه به الكافرون من الولد، وعن كل وصف لا يليق به جَلَّ جلاله. وليفيد الاستنكار من قولهم، وتهويله وإبطاله.

ثم يستثني تبارك وتعالى عباده المتصفين بالإخلاص له من حضورهم لجهنم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإن عباد الله تعالى الذين اتصفوا بالإخلاص مُنَزَّهون عن أن يصفوا ربهم تبارك وتعالى بمثل ذلك، وبالتالي هم لا يُحضَرُون إلى جهنم. فإنهم مستبعدون ومستثنون. فما يكون ذلك الجور في الوصف إلا من العباد الظالمين الكافرين، غير المخلصين. وكذلك هو استثناء من المحضرين إلى النار يوم القيامة. وهذه المرة الرابعة التي يستثني سبحانه وتعالى عباده المخلصين. ليفيد التأكيد بأنهم في حرزه وأمانه وكرمه، وأن مآلهم إلى الجنة بفضله ورحمته وكرمه. اللهم اجعلنا من عبادك المخلَصين، والمخلِصين بفضلك يا رب العالمين.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٥٢/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٣/٦)

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ
﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ
حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى المشركين بتحقيرهم، وتحقير ما يعبدون من الأصنام، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ فخصصهم بالذكر والوعيد ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون الكافرون. ثم حصر معهم معبوداتهم ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ وما تعبدونهم من الأصنام ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾ لستم بفاتنين عباده بالإفساد والإضلال، ثم استثنى تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ إلا من كان من أهل النار، باتجاهه لكم، وبطاعتكم في الغواية التي أنتم فيها، مما يفيد أن أهل الهدى لا يمكنكم عليهم بالغواية أبداً. وفي هذا بيان لعجزهم وعجز آلهتهم من أن يضلوا أحداً كان نصيبه وقدره من أهل الجنة والصلاح، فيقطع عليهم الطمع في إضلال العباد الطائعين لربهم سبحانه وتعالى. ويبين أن مقدرتهم محصورة على من هم على شاكلتهم، من أهل الضلال والفساد. مما يبين أن أهل الإيمان والصلاح لا يمكن إغواءهم بالشهوات والشبهات، لأيمانهم، ومعية الله تعالى لهم بالتوفيق.

ثم يُظهر الله تعالى براءة الملائكة مما قاله المشركون ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ فتقول الملائكة: ما منا إلا له مكان ومنزلة معلومة في الملأ الأعلى، وليس كما زعمتم أننا بنات الله تعالى، فنحن عبيد له عَزَّ وجل، وجعل لنا منازل ومكانة ننزلها في السماء، ثم أكدوا امتثالهم لربهم سبحانه وتعالى، وذلك بذكر بعض صفاتهم في الامتثال لربهم عَزَّ وجل. الأولى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ أي: وإنا لنحن الواقفون صفوفاً في طاعة الله تعالى وعبادته، بما يفيد الامتثال للطاعة، مع التنزيه من معصية الله تعالى. ثم أردفوا تلك الطاعة بطاعة أخرى، وهي الصفة الثاني: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ وإنا لنحن الْمُقدِّسُون والمنزهون لربنا عما زعم المشركون من وصف ربنا جَلَّ في علاه، بأن له الولد. ودلالة التسبيح تجمع التنزيه والتعظيم، باللسان وبالصلاة. فجمعوا

كمال التنزيه لربهم، والمداومة على ذلك. مما يعطي المؤمن القدوة والأسوة في المداومة على تقديس ربهم سبحانه وتعالى: اعتقاداً بالقلب، وذكراً باللسان، وعملاً بالجوارح، كالصلاة وغيرها من العبادات.

ثم يعود البيان إلى خاصة المشركين ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ وإن كان هؤلاء المشركون يقولون قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ لو أن عندنا كتاباً من كتب الأولين التي أنزلها الله سبحانه وتعالى كالتوراة والإنجيل ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ لامتثلنا لكمال الطاعة، وكنا أهل الإخلاص لربنا من عموم العباد. وفي هذا تزكية لأنفسهم بالطاعة فيما لو كان أحد الكتب السابقة من الله تعالى قد أُنزلت فيهم. بل ورد التأكيد منهم بلام التوكيد ونون التوكيد ﴿ لَيَقُولُونَ ﴾ بل ورد قولهم بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يدل على تكرار قولهم، بأنه تكرر منهم ذلك القول. ومسبوق بفعل كان ﴿ كَانُوا۟ ﴾ ليدل على ثبوت القول عليهم فيما مضى. وقد كان قولهم على سبيل التمني والترجي ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بما يفيد تأكيد القبول والإقبال على الطاعة والامتثال به.

فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم كفروا به ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فكذبوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبما جاءهم به من الكتاب. وجملة ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ تفيد تكذيبهم به. أي: فلما جاءهم ما طلبوا وتمنوا كفروا به، وبناء على كفرهم ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فسوف يعلمون عاقبة كفرهم بما جاءهم من الحق، بما يفيد الوعيد والتهديد لهم إن أصروا واستمروا على كفرهم، وإنكارهم للحق ومحاربته. ومن فوائد ذلك أن الإنسان قد يزعم أنه لو تيسر له أمر من الأمور ليكونن من المحسنين فيه، فإذا تحقق له مراده نكث فيما وعد به. مما يلزم الاعتماد على الله تعالى، وسؤاله التوفيق، ومعرفة الحق والثبات عليه، وذلك بأن لا ينفرد بنفسه وبنواياه عن ربه تبارك وتعالى، فإنه لا حول ولا قوة لأحد إلا بالله سبحانه وتعالى، فهو المعين والموفق.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم وفائه لعباده المرسلين، بالنصر والتأييد والظفر على الكافرين ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فلقد تقدم وعدنا للمرسلين بما قضينا به لهم من النصر والتمكين. بما يبين: أن العاقبة لرسلنا وأتباعهم المؤمنين في الدنيا والآخرة. فدلالة قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ تفيد سبق القضاء من الله عَزَّ وجل، ودلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لجميع عبادنا المرسلين وأتباعهم المؤمنين، والمقضي به منه سبحانه وتعالى هو ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ أنهم المنصورون على من كذبهم. بما يفيد الجزم بالقضاء

لهم بالنصر، وأن الهزيمة الساحقة كائنة على من كفر بهم، وصد دعوتهم. وفي هذا بيان للكافرين بأن كلمة الله تعالى هي العليا، وأن كلمة لذين كفروا هي السفلى، وأن نصر جنده المؤمنين هو المتحقق، وليس لدينه وأهل دينه المؤمنين هزيمة وانكسار. مما يفيد بأن من تمسك بدين الله تعالى فإنهم منصورون، لأن نصر المرسلين هو نصرة الدين، والوارثون للدين هم المؤمنون من بعد المرسلين. كما أكد ذلك وبينه سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ أي: أن الرسل وأتباعهم المؤمنون الذين يمثلون جند الله تعالى في الدنيا هم المنتصرون على من عاداهم. وهذا لا ينفي حصول الهزيمة في بعض المواقف للعبرة، وللحكمة، ولكن مهما حصل من الهزيمة فإنها ليست القاضية، بل عموم الغلبة والنصر لدين الله تعالى، ولمن حمل هذا الدين بالطاعة والامتثال. مما يبين للمؤمنين في كل زمان ومكان أن نصرهم على الكافرين قائم بعد معونة الله تعالى على تمسكهم بدينهم.

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوم به تجاه هؤلاء الكافرين الصادين المعاندين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فأعرض عنهم بالصبر على أذاهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى وقت مؤجل، يَعْلَمُه اللهُ تعالى، بما يفيد أنه سيكون بعد انقضاء زمن ومدة الكف وإعراضك عنهم شأن آخر، فتكون العاقبة والظفر والنصر فيه لك ولمن معك من المؤمنين أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فتأويل ذلك: فتول عنهم يا محمد إلى حين مجيء عذابنا، ونزوله بهم[١] لتستوفي دلالة معناها جميع المواقف التي هزمهم الله تعالى فيها، ونالهم عذاب القتل، بل وكذلك ما سيكون من شأن عذابهم يوم القيامة. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي: أعرض عن كفار مكة ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ حتى تنقضي مدة إمهالهم. وقال مجاهد: حتى نأمرك بالقتال. فعلى هذا، الآية محكمة. وقال في رواية: حتى الموت. وكذلك قال قتادة. وقال ابن زيد: حتى القيامة[٢] وقيل: إلى يوم بدر، وقيل إلى يوم فتح مكة[٣] فاستوعبت أوقاتاً متعددة، ينال الكفار فيها الهزيمة والعذاب في الدنيا والآخرة. مما يفيد أهمية الصبر، وأهمية الإعراض عن المؤذي إلى الوقت المناسب، فإن الله تعالى لا يسارع للناس بالعقاب، بل يمهل العباد، لعلهم يتوبون ويرجعون، حتى تقوم عليهم الحجة، مع عدله وحلمه سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنهم سيرون تلك الهزيمة للكافرين، وكذلك العذاب حين يحل بهم، فقال تعالى ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وانظرهم وابصرهم إذا نزل بهم العذاب

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥٩/١٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٤/٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤١٥/٤)

بالقتل والأسر، فحينها سوف يبصرون ساعة لا ينفعهم ما يشاهدون ويبصرون مما حل بهم. مما يدل على أن الوعد في قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أنه وعد قريب، ولعل أوله يوم بدر، وما تَبِعَهُ من الهزائم لهم، وبعده فتح مكة، وغير ذلك من هزائم أهل الكفر. وكذلك ما سيأتيهم يوم القيامة. فدل إبصار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ وإبصار المشركين المعاندين لما سيحل بهم ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ بأن الشأن في كلمة ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ بأنه في الوقت القريب. فسوف يبصرون هزيمتهم وعذابهم في الدنيا وكذلك يوم القيامة.

ثم يقول تبارك وتعالى عن تماديهم في الكفر ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أيستعجلونك أيها الرسول بعذابنا لهم؟ سؤال استنكار، وتوعُّد من الله تعالى لهم. أبوقوع عذابنا لهم يستعجلونك أيها الرسول؟ سؤال استنكار، وتوعد من الله تعالى لهم. وكذلك يفيد التهكم والسخرية منهم، لأن أقوالهم وأفعالهم المخزية من الكفر والعناد تؤكد أنهم بتكذيبهم يستعجلون أن يحيق بهم العذاب. كما يفيد هذا شدة الوعيد والتهديد لهم، إن لم يقبلوا دين الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بقوة عذابه إذا وقع بساحتهم ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فإذا وقع العذاب بمواقعهم التي هي أقرب ما يكونون فيها ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فبئس صباحهم ذلك اليوم الذي يقع فيه العذاب عليهم. بما يفيد: شدة انتقام الله تعالى منهم، بشدة ذلك العذاب. بل أبلغ سبحانه وتعالى في وصف المكان والوقت الذي يقع فيه العذاب، وكذلك عن شدته. فمن المبالغة في شدته، أن وصفه عَزَّ وجل بالنزول ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ دلالة على الاستعلاء بالعذاب من فوقهم، فليس لهم القدرة على مواجهته، وأنه مباشر من الله تعالى عليهم، وذلك بتسليط ما يريد وما يشاء عليهم من العذاب، سواء كان العذاب من المؤمنين بالحرب والقتل والأسر، أو من الملائكة، أو بهما معاً، كما في معركة بدر الكبرى. أو بغير ذلك مما يريد سبحانه وتعالى، فهو القاهر فوق عباده. كما أفادت ﴿ فَإِذَا ﴾ المفاجأة بوقوع العذاب، فيكون من غير ما يحتسبون. لزيادة المبالغة في شدة وهول العذاب. كما أفاد موقع العذاب بأنه كائن ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي: أنه يأتيهم حيث مكان إقامتهم، وفي أقرب مكان من إقامتهم. فالفِناء هو ساحة الدار، ليفيد المبالغة في المباغتة، حتى أنهم لا يدركون ما يريدون أن يتصرفوا فيه من خارج منازلهم، ليفيد المبالغة العظيمة في قوته وشدته وسرعته.

بل زاد سبحانه وتعالى من شدته بالوقت والزمن، بأنه صباحاً، حال نهوضهم من نومهم، وابتغاؤهم معاشهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فسيكون عليهم ذلك الصباح أسوء صباح ﴿ فَسَاءَ ﴾ فبئس السوء

ذلك الصباح ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ فساء ذلك الصباح الذي يصبحون فيه على وقوع العذاب بأفنية دورهم ومساكنهم. فبئس ما يصبحون عليه أولئك ﴿ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أولئك الذين تم إنذارهم فلم يستجيبوا لِمَا أنذرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إن لم يكفوا عن تمردهم، ويُسلموا لله رب العالمين.

ثم يتكرر الأمر بالتولي عنهم بعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى ما سيحل بهم من العذاب إن لم يتعظوا بما سمعوا من الحق، وما سمعوا كذلك من الإنذار بالترهيب والوعيد والتهديد ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فاتركهم وأدبر عنهم حتى يأتي ما وعدناهم به إن لم يستجيبوا ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ فعند ذلك الوقت فستبصر بمشاهدتك أيها النبي لما وعدناهم به. وكذلك ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ وسوف يبصرون بأعينهم حقيقة ما وعدناهم به من العذاب إن لم يَرْعَنُوا وينكسروا ويتوبوا إلى الله تعالى، ويستجيبوا لما جئتهم به أيها النبي صلى الله عليه وسلم من الحق الواضح المبين.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الصافات بثلاث آيات كريمات، ينزه فيها ذاته العظيمة عَزَّ وجل عما قال الكفرة في حق ربهم، وعن كل نقص وسوء، سبحانه وتعالى عما يقولون، فقال جَلَّ جلاله ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزه الله ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ ذو القوة والغلبة والرفعة والعزة التي لا ترام، جَلَّ في علاه ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عما يصف هؤلاء الكفرة ربهم به من الولد، وعن كل وصف لا يليق به جَلَّ جلاله. وليفيد الاستنكار من قولهم، وتهويله وإبطاله.

وجملة ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ ﴾ تستجمع جميع التزيه من الذكر والمحامد، ليفيد إثبات صفة الكمال المطلق لله رب العزة والجلال، مما يستوجب إثبات الكمال المطلق لله رب العالمين. الذي اتصف بأنه ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ مالك العزة، فلا يضاهيه أحد من خلقه. لأنه الغالب والقاهر فوق عباده لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة والسلطان.

ثم رفع تبارك وتعالى من شأن جميع المرسلين، فيحيهم عَزَّ وجل بالتحية الجليلة المباركة منه لهم سبحانه وتعالى، فقال جَلَّ في علاه ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تحية من الله عَزَّ وجل، وأمان وسلامة لجميع المرسلين من أن ينالهم شيء من السوء. فسلام الله تعالى عليهم في الدنيا والآخرة، وبما يفيد أيضاً سلامة ما قاموا به من كل نقص، وإثبات الوفاء منهم الله تعالى بما كلفهم به عَزَّ شأنه من تكاليف الرسالة. ثم قال تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وله الحمد في الأولى والآخرة، وفي كل وقت وحين، وفي كل حال.

فجمعت الآية الكريمة جميع الحمد بأنه له جَلَّ شأنه، وفيه إشارة إلى الحمد والشكر على هلاك أعداء الدين، ونصرة المرسلين والمؤمنين. كما أن في ذلك إرشاد للعباد إلى حمد ربهم وشكره اعتقاداً وقولاً وعملاً. وتضمن الحمد إثبات ربوبيته وألوهيته لجميع الخلائق، فهو رب العالمين، الدالة على أنه رب كل العوالم ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فلا شيء إلا والله ربه، وخالقه ومالكه، والمتصرف فيه كيف يشاء.

وبهذا الحمد والثناء على رب العالمين ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة العظيمة. فالحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبيه ورسوله محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وعلى آله أجمعين.